المشككون بنهج البلاغة والرد عليهم





تأليف

علي الفتال

دار المحجة البيضاء

شركة مكتبة الألفين



المشككون بنهج البلاغة
والرد عليهم

المشككون بنهج البلاغة
والرد عليهم

تأليف

علي الفتال

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ ــ ٢٠٠٥ م



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان
ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قديماً قيل: «من ألّف وصنّف فقد استُهدِف»

ذلك القول يصدق في كل زمان ومكان.

فالذين يتعاملون مع الفكر والقلم مستهدفون أبداً، لماذا؟

لأنهم:

١ ـ سيطرحون آراء قد لا تتفق مع هذا وذاك من حملة الأقلام فتبدأ السهام تتراشق فيما بينهم.

٢ ـ قد يكون هذا المفكر أو ذاك متفوقاً على بعض أقرانه فيحاول هؤلاء الأقران أن يظهروا فساد قول هذا المتفوق عليهم. غيرة وحسداً أو تقرباً من ذوي السلطة والجاه.

٣ ـ قد يسلط هذا المتفوق الضوء على بعض الظواهر المدانة التي تمس بعض من يمتّون بصلة إلى أصحاب الظواهر المدانة تلك فيحملون معاول الهدم والنيل من هذا المتفوق الذي

ينشد الحق في ما يطرح بهدف قلب الحقائق وتشويهها حتى ولو كانت على حساب المبدأ والعقيدة.

وهكذا كان الإمام علي‌عليه‌السلام في «نهج البلاغة». إذ لمجرد ورود خطبة أو كلام معين لا يتفق مع رأي البعض صاروا يشككون بما جاء في «النهج» هذا.

ولأنهم لا يستطيعون النيل من شخص الإمام علي‌عليه‌السلام فقد لجأوا إلى طرق ملتوية ومنافقة تظهر غير ما تبطن. وهذه الطرق تناولت «نهج البلاغة» تناولاً ظاهره الحق وباطنه يجأر بالباطل:

فقد شككوا في جامع النص؛ أهو الشريف الرضي أم الشريف المرتضى ثم راحوا يشككون في عائدية النهج نفسه فمنهم من قال إنه ليس من كلام الإمام علي‌عليه‌السلام ومنهم من قال إن بعضه للإمام وبعضه من وضع الشريف الرضي وبعضه من وضع ابن أبي الحديد. وهكذا صاروا يتخبطون خبط عشواء وهم يدركون إن ما في نهج البلاغة كله للإمام علي ولكن ما الحيلة وقد وردت فيه خطبة تمس بعض من التفّوا على مبدأ الحق فحرفوه عن جادته التي رسمها لهم صاحب الدعوة الرسول الكريم محمد بن عبد الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وهؤلاء يسيرون في خط أولئك المحرفين.

فهم قالوا إن في «النهج» «غثاثة» لا يمكن أن يكون هذا الكلام للإمام علي‌عليه‌السلام وهو من «سن الفصاحة لقريش».

إنها كلمة حق يراد بها باطل.

وقالوا إن في النهج تعريض بالصحابة وعلي‌عليه‌السلام «بريء» من

كلام يتعرض بالصحابة. إذن فالنهج لا يمكن أن يكون بزعمهم كله من كلام علي عليه السلام.

ومما قالوا أيضاً إن «الوصي» أو «الوصية» كمصطلح لم تكن معروفة في زمن الإمام علي عليه السلام فهي عرفت في عصور لاحقة. ثم إن الإطناب والإيجاز ـ في رأيهم ـ لم يكن معروفاً إلاّ في عصور متأخرة كالعصر العباسي.

وقل مثل ذلك عن السجع الذي زعموا أنه ما كان له أثر في زمن الإمام عليه السلام لذلك قرروا أن الكلام المسجوع هو من وضع شخص أو أشخاص عاشوا في عصور لاحقة بعد عصر الإمام عليه السلام.

أما دقة وصف الطاووس والنحلة والجرادة والخفاش فقد استبعدوا أن يكون هذا الوصف الدقيق للإمام علي عليه السلام لأنه لم يكن معروفاً في زمانه عليه السلام.

وهكذا صاروا يفتشون في مفردات نهج البلاغة ليجدوا ما يعينهم على إبعاد نسبة «النهج» إلى الإمام عليه السلام وكلما «اكتشفوا» واحدة من تلك اللقى فرحوا بها وصاروا يفتشون عن «لقية» أخرى تعينهم على «منهجهم العلمي» هذا!! فالألفاظ الاصطلاحية التي وردت في «النهج» لا يمكن أن تكون من كلام علي عليه السلام لأنها من كلام «فلاسفة» متأخرين عن عصر الإمام عليه السلام بقرون. وكذلك التقسيمات العددية التي وردت في «النهج» لا يمكن أن تكون ـ حسب زعمهم ـ للإمام علي عليه السلام لأنها غير معروفة في زمانه أيضا.

أما التنبؤات والتوقعات فهي موضوعة ومنسوبة إليه عليه السلام.

وهكذا عابوا عليه الزهد في الحياة.

كما أنكروا الوصف الدقيق للحياة الاجتماعية في زمان الإمام عليه السلام وقالوا إن الذي ورد في «النهج» لم يكن من قول الإمام نفسه لما فيه من مصطلحات هي بعيدة عن عصره عليه السلام.

ونحن في هذا الكتاب حاولنا أن نسلط الضوء على ما أوردنا من أقوال المشككين ونناقشها ونرد عليها بمنهج علمي معتمدين الحقائق التاريخية والمنطقية التي لا تقبل الطعن والرد. وقد توخينا بعملنا هذا مرضاة الله جل في علاه وإعادة الحق إلى أصحابه وتبصير من زاغوا عن طريق الحق إما جهلاً منهم أو عناداً. بهدف أن يعودوا إلى جادة الصواب فيتخذوا من شخصية الإمام عليه السلام مثلهم الأعلى في مناصرة الحق ومحاربة الباطل وبذلك نكون كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضنا بعضاً فنقف بوجه من يحاولون جاهدين حرفنا عن الدين الذي جاء به الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم من الله تعالى ليخرجنا من الظلام إلى النور ـ كمقدمة ـ للقضاء على هذا الدين الحنيف الذي وجدوا فيه النور الذي تعشو منه أبصارهم. عسى أن نكون ممن ساهموا في وضع الحقائق في نصابها فإن استطعنا فمن الله التوفيق وإن أخفقنا فنسأله جل شأنه أن يغفر لنا وأن يسدد خطانا لما فيه نصرة ديننا الذي ارتضاه لنا إنه هو القدير المكين ومنه نستمد العون والتمكين.

علي الفتال

٥/١٠/٢٠٠٢

المبحث الأول

المشككون بنهج البلاغة

إذا ما رجعنا إلى سيرة الشريف الرضي سنعرف أنه هو الذي جمع مفردات «النهج» وذلك في ٤٠٠هـ ولكن ثمة من نسب جمع النهج إلى الشريف المرتضى، أخي الرضي، من هولاء جورجي زيدان[١] إذ قال «والصحيح إنه من جمع الشريف المرتضى»، وكذا قال بروكلمان[٢]، أما شوقي ضيف فقد قال في كتابه (تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي/ ١٢٨): «إن اعتراف الشريف الرضي بجمعه (النهج) دليل على وضعه إياه، وبذلك قد خلط بين الوضع والجمع».

في الحقيقة إن تلك الأقوال لا تريد التشكيك في من جمع (النهج) بقدر ما تريد التضبيب حول عائدية (النهج) أصلاً، إلى الإمام علي عليه السلام، وذلك للتقليل من شأنه وشأن أمير المؤمنين عليه السلام.

والمسألة قديمة؛ إذ أن خصومه عليه السلام، منذ بزوغ نجمه ـ

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١/ ١٨١ و٢/ ٢٨٨.

(٢) تاريخ الأدب العربي ٢/ ٦٤.

سواء في الغزوات والحروب في بدء الدعوة الإسلامية وفي تقريب النبي محمدﷺ إياه قولاً وعملاً ـ أخذوا ينالون منه بوسائل شتى ـ إن ظاهرة أو مبطنة، ويرجع تاريخ تلك الخصومة والعداء إلى يوم غدير خم، الذي رفع الرسول الكريم فيه علياًعليه السلام وقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله». أو قبل ذلك يوم زوّجه ابنته فاطمة الزهراءعليها السلام ومن خلال أحاديثهﷺ الكثيرة في حق الإمامعليه السلام كقولهﷺ وهو يخاطبه «يا علي.. حبك إيمان، وبغضك نفاق؛ وأول من يدخل الجنة محبك، وأول من يدخل النار مبغضك».

وقد أحسّ خصوم الإمام بأنه سيكون له شأن في البنيتين الفوقية والتحتية للهيكلية الإسلامية فصاروا ينالون منه بطرق خبيثة، حتى في زمن النبيﷺ أو بعده، ففي زمن النبيﷺ نذكر الرواية التي تقول؛ إن الرسولﷺ بعث علياًعليه السلام في سريّة ليقبض الخمس فاصطفى منه سبيّة؛ واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك رسول اللهﷺ متعاقبين واحداً بعد واحد في قول واحد، فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول اللهﷺ وقد تغيّر وجهه، فقال «ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ علي مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة».

وقال لأحدهم: أتبغض علياً ؟ قال:

ـ نعم.

قالﷺ:

ـ لا تبغضه، فإن له الخمس أكثر من ذلك، أي أكثر من السبية التي اصطفاها.. لا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حباً».

والرواية التي تقول: إنهﷺ بعث الإمام علياًعليه السلام إلى اليمن فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم فأبى فشكوه إلى رسول اللهﷺ بعد رجوعهم، وتولى شكايته سعد بن مالك الشهيد، فقال:

ـ يا رسول الله، لقينا من علي الغلظة وسوء الصحبة والتضييق.. ومضى يعدد ما لقيه، حتى ضاق به الرسول ذرعاً فهتف به، وهو في أثناء كلامه:

ـ يا سعد بن مالك الشهيد، بعض قولك لأخيك علي، فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله.

وفي رواية أخرى قالﷺ للشاكين من الإمام عليعليه السلام:

ـ أيها الناس لا تشكو علياً إنه لجيش في ذات الله.

والرسولﷺ كان يعلم أن ثمة من يضمر العداوة والبغضاء للإمام عليعليه السلام حسداً له من قربه من ابن عمّهﷺ فكان رسول اللهﷺ يؤكد ـ كما يقول إبن عباس ـ لهم منزلته العالية في الدنيا والآخرة في قوله:

ـ أنت سعيد في الدنيا وسعيد في الآخرة، من أحبّك فقد أحبّني، وحبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدوّ الله، طوبى لمن أحبّك والويل لمن أبغضك».

وبعد زمن النبيﷺ صاروا يقلبون الحقائق ويحوِّرون الكلم

بما يقلّل من شأن الإمام علي عليه السلام؛ فقد روى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وجده (أي علياً عليه السلام) في المسجد نائماً وقد ترب جنبه فجعل يمسح التراب عن جنبه ويقول:

ـ قم يا أبا تراب.

ويرى العلاّمة محمد صادق الصدر إن كلمة (أبو تراب) كناية عن كثرة عبادته وصلواته، لأن المسلمين في السابق كانوا يسجدون على التراب، وكان الإمام علي عليه السلام معفَّر الجبين لكثرة ما يسجد. فقوله: (قم يا أبا تراب) على حد قوله: (قم يا كثير العبادة).

وقد كانت هذه الكنية من احب الكنى إليه عليه السلام إذ كان كثيراً ما يدعوه بها.

ولكن معاوية بن أبي سفيان، ومن حوله أحسّوا برفعة هذه الكنية وميزة صاحبها، فأخذوا يموّهون على الناس بأن سبّوه بها على المنابر مظهرين أنها منقصة له[1].

كانت تلك البداية؛ إذ بدأوا بشخص الإمام عليه السلام فنالوا منه ما يشاؤون ليأتوا إلى معطياته الجهادية والأخلاقية والفكرية والإبداعية فيحطّوا من قدرها ويقللوا من شأنها، فلا غرابة ـ إذن ـ إذا ما قرأنا، هنا وهناك، وفي هذا العصر أو ذاك، تشكيكاً في عائدية «النهج» إلى الإمام علي عليه السلام أو الطعن في بعضه بطريقة مبطّنة كتبطين كلمة الحق يراد بها الباطل. فظهرت الأصوات

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١/ ٤.

صريحة مرة ومبطَّنة أخرى وخفيّة تارة وصارخة حيناً؛ فـ «محمود محمد شاكر» يرى إن «[illegible]ج البلاغة» موضوع وملفَّق على الإمام علي عليه السلام «لأنه كلام كثير [illegible]غثاثة»[1].

تلك غمزة لم يكن محمود محمد شاكر وحده قد غمز بها «النهج» وصاحبه، فقد شاركه بها ـ وبطريقة أكثر ضلالاً ـ الدكتور شفيع السيد. فكتب يقول[2]:

«.. فضلاً عما اشتهر به الإمام من بلاغة القول ورصانة العبارة، على نحو لا تستبعد معه نسبة تلك النصوص إليه من حيث تركيبها اللغوي وتشكيلها البياني».

لا شك أن القارىء الكريم قد لفتت نظره عبارة «لا تستبعد نسبة تلك النصوص إليه..». إذن فهو يشكك بنسبتها إليه عليه السلام ولكنه لا يستبعد ذلك، ليس هذا فحسب بل إنه يذهب إلى غمزة أخرى للنيل من «النهج» وصاحبه إذ يقول الدكتور شفيع السيد عن الشيعة:

«إن بعضاً منهم غالى في تقديره له (أي للإمام علي عليه السلام) حتى رفعه إلى مستوى من اصطفاهم الله بالوحي، ومن هؤلاء الرضي نفسه في مقدمته للكتاب، فقد علل سبقه ـ رضي الله عنه ـ في مضمار البيان وتفوقه على كل من عداه من الخطباء والبلغاء؛ بأن كلامه صلى الله عليه وآله وسلم «الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه

(١) مجلة الكاتب المصرية العدد ١٧٠ مايو ١٩٧٥م/ ٣٠ ـ ٣١.
(٢) مجلة الهلال العدد ١٢/ السنة ١٩٨٣/ ٩٥.

عبقة من الكلام النبوي»[1]. وعدَّ ذلك غلواً من الشيعة. وقد نسي الدكتور شفيع السيد وغيره، ممن هم على شاكلته في نمط التفكير؛ أن الرسولﷺ نفسه كان يقول: إن النظر إلى وجه علي عبادة ـ وقد نقلنا ذلك في مبحث فائت من هذا الجزء ـ ونسي ـ هو وغيره ـ قول الرسول الكريمﷺ لعبد الرحمن بن عوف: «يا عبد الرحمن أنتم أصحابي وعلي بن أبي طالب مني وأنا من علي، فمن قاسه بغيره فقد جفاني، ومن جفاني آذاني، ومن آذاني فعليه لعنة ربي، يا عبد الرحمن إن الله أنزل عليَّ كتاباً مبيناً وأمرني أن أبيّن للناس ما أُنزل إليهم ما خلا علي بن ابي طالب فإنه لم يحتج إلى بيان لأن الله تعالى جعل فصاحته ودرايته كدرايتي».

لا أدري ماذا يقول «السيد» وغيره في «ما خلا» وفي «لم يحتج إلى بيان» وفي «درايته كدرايتي»؟ فأيهما «غالى» أكثر الشيعة ـ ومنهم الرضي في «مسحته» و«عبقته» ـ أم الرسولﷺ في ما نقلنا؟.

إن قليلاً من التأمل وقليلاً من الركون إلى الحق وقليلاً من الخروج إلى دائرة الضوء تجعلهم يقولون الحق وينظرون إلى الأشياء بمنظار الحق والإنصاف فلا يغمزون ولا يلمزون. إن علي ابن أبي طالب عربي وإنه إبن عم الرسول وكاتب وحيه وربيب بيته ورفيقه في حله وترحاله، أكثير على كلامه أن تكون فيه «مسحة العلم الإلهي وعبقة من الكلام النبوي»؟ ألا يدعو ذلك إلى الفخر أن عربياً ومسلماً وقريباً من الرسولﷺ يحمل إلينا هذا المعطى

---

(١) المصدر السابق نفسه/ ٩٥.

العظيم والفكر الخلاّق في بلاغة وفصاحة ومنهج علمي ثابت، وينبري عربي آخر، بل ومسلم؛ ومن البيت نفسه إلى جمع هذا المعطى في كتاب أسماه «نهج البلاغة» أليس ذلك مما يجب ان نفخر به؟ لا أدري لم هذا التشكيك؟ هل لأنه يحمل إسم الإمام علي عليه السلام؟ أم لأنه حظي بما لم يحظ به أي كتاب قبله وبعده من اهتمام المؤلفين والشراح؟

وقد بلغت شروحه (٧٥) شرحاً بقول الأميني في غديره[١] و(١٠١) شرحاً بقول الشيخ عبد الزهراء الخطيب الحسيني[٢]. ولم تقتصر الشروح تلك على الشيعة، بل كان معظمهم من غير الشيعة. وليس كما ذهب الدكتور شفيع السيد إلى القول «إن معظم شراح «نهج البلاغة» هم من الشيعة»[٣].

لنترك قول الشريف الرضي ولنقرأ قول الشيخ محمد عبده، الذي هو ليس (شيعياً) ولا من (أهل البيت)، إذ يقول: «وليس في أهل هذه اللغة إلاّ قائل بأن كلام الإمام علي بن أبي طالب هو أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله وكلام نبيه، وأغزره مادة وأرفعه اسلوباً وأجمعه لجلائل المعاني»[٤].

أما الدكتور زكي نجيب محمود، وهو مثل الشيخ محمد عبده في المذهب، يقول:

---

(١) الغدير ٤/ ١٦٤ ـ ١٦٩.

(٢) مصادر نهج البلاغة وأسانيده. لعبد الزهراء الخطيب ١/ ٢٤٨ و٣١٣.

(٣) مجلة الهلال العدد ١٢/ ١٩٨٣/ ٩٦.

(٤) من مقدمة نهج البلاغة شرح محمد عبده ١/ ٥.

«ونجول بأنظارنا في هذه المختارات من أقوال الإمام علي التي اختارها الشريف الرضي (٩٧٠ ـ ١٠١٦ م) وأطلق عليها (نهج البلاغة)؛ لنقف ذاهلين امام روعة العبارة وعمق المعنى، فإذا حاولنا ان نصنف هذه الأقوال تحت رؤوس عامة تجمعها؛ وجدناها تدور ـ على الأغلب ـ حول موضوعات رئيسة ثلاثة، هي نفسها الموضوعات الرئيسة التي ترتد إليها محاولات الفلاسفة قديمهم وحديثهم على السواء ألا وهي: الله والعالم والإنسان.

إذن فالرجل ـ وإن لم يتعمدها ـ فيلسوف بمادته، وإن خالف الفلاسفة في أن هؤلاء قد غلب عليهم ان يقيموا لفكرتهم نسقاً يحتويها على صورة مبدأ ونتائجه، وأما هو فقد نثر القول نثراً في دواعيه وظروفه»[١].

في الحقيقة إن بذرة التشكيك بذرها إبن خلكان إذ قال عن «نهج البلاغة»: «إنه ليس من كلام علي، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه»[٢].

وأيده في ذلك الصفدي في الوافي بالوفيات[٣]، واليافعي في مرآة الجنان[٤]، وإبن حجر في لسان الميزان[٥].

يبدو أن بذرة إبن خلكان قد نمت وصارت شجرة ولكنها

(١) المعقول واللامعقول في التراث العربي/ ٣٠.
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٣.
(٣) المصدر السابق نفسه ٢/ ٣٧٥.
(٤) المصدر السابق نفسه ٣/ ٥٥.
(٥) المصدر السابق نفسه ٤/ ٢٢٣.

شائكة فتفيأ في ظلالها بعض كتابنا الذين عز عليهم أن يكون علي ابن أبي طالب عليه السلام هو قائل كلام «نهج البلاغة»، فصاروا يرددون أقوال إبن خلكان وغيره ممن تابعوه من القدماء؛ فجرجي زيدان يقول: «إنا كنا نرى أن كثيراً من تلك الخطب ليس لعلي بدليل اختلاف الاسلوب ومخالفة ما فيها من المعاني لعصره»(١).

وظل شوقي ضيف يتأرجح في كلامه «يبدو أن النهج قد دوَّخه» فراح يخبط خبط عشواء؛ فمرة يقول: «إن علياً قد خلف خطباً كثيرة» واخرى يقول: «إن ـ النهج ـ من وضع الشريف الرضي» ولكي يعزز قوله هذا ويدعمه يقول: «إن الوضع على علي أقدم من عصر الشريف بل من عصر المسعودي».

أية «حزّورة» هذه التي «حزرها» شوقي ضيف؟

أما محمود محمد شاكر فقد قال: وهو يرد على قول الدكتور زكي نجيب محمود، «لننظر كم اجتمع في هذا الرجل (يعني الإمام علي عليه السلام) من أدب وحكمة وفروسية وسياسة» قال محمود محمد شاكر: «ألم يكن أسلم له في طريقه (ويريد الدكتور زكي نجيب محمود) أن يسأل وأن يحاول أن يفكر على الأقل حتى يتثبت من صحة نسبة ما في هذا الكتاب من الأقوال إلى علي رضي الله عنه؟ إنه إذا بطل ان يكون هذا الكلام صحيح النسبة إلى علي، كان استخراج صورة علي منه ضرباً من العبث»(٢).

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٢٨٨.

(٢) مجلة الكاتب العدد ١٧٠، ١٥ مايو ١٩٧٥/ ٣٠.

ولكن محمود محمد شاكر هذا لم يكتفِ بما قال إذ أراد أن يؤكد شيئاً آخر في نفسه ظل يتغرغر به زمناً طويلاً فقال: «إن النظرة الأُولى إلى جملة ما في الكتاب من الكلام، تقطع بأن كثرته الكاثرة لم تجرِ على لسان علي رضي الله عنه إلاّ أقل من العشر..»[1].

وهنا سيتنفس محمود محمد شاكر الصعداء بعد أن يؤكد «إن إبن سلام عندما شرح غريب ما في النهج لم يكن فيه من كلام علي عليه السلام ربع من حديث عمر»[2].

وهنا خرجت الغرغرة وارتاح الرجل لهذه المقارنة التي جهد لها في مقاله، فـ «ربع حديث عمر» هي ركيزة المقال ومقصوده.

وعلى غرار بعض الكتاب الذين يوردون جملة من الأدلة أو الأمور، ولما لم يكن في حوزتهم شيء آخر يقولونه ختموا ذلك التعداد بقولهم: «وغيرها وغيرها» أو «وما إلى ذلك» أو «الخ..». وهكذا فعل محمود محمد شاكر وهو يحاول، جاهداً تأكيد بطلان «كون ما في النهج لـ (علي بن أبي طالب عليه السلام)» فقال: «وهناك أدلة أخرى على بطلان نسبة ما في هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين»[3] لأنه عجز أن يورد «أدلة أخرى» كأنه أدرك أن ما أورده من «أدلة» لم تقم حجة على «بطلان» نسبة ما في النهج إلى الإمام بل قامت دليلاً على بطلان كلامه هو، وأعني كلام محمود

(١) المصدر السابق نفسه/ ٣٠.
(٢) المصدر السابق نفسه/ ٣١.
(٣) المصدر السابق نفسه/ ٣١.

محمد شاكر، ولأنه أدرك ذلك أراد أن «يستغفر» لنفسه ويكفر عنها هذا الخطأ في المنهج «العلمي» في تناول موضوعات كهذه أسرع إلى القول، ولكنه قول مبطن أيضاً فقال: «فكتاب كهذا الكتاب، يدل صريح العقل والنظر وصريح النقل والتثبت على أنه كتاب قريب النسب. .»[1]

وممن يعني هذا القرب بالنسب؟ هل من الإمام علي عليه السلام أم من الشريف الرضي رحمه الله؟.

هكذا «غلّف» قوله ليموّه على القارىء في نظره. ومع ذلك فإنه يؤكد أنه «كان غير لائق بالدكتور زكي أن يتسرع إلى التقاطه دون أن يفحصه ويتحرى عنه فيجعل ما فيه من كلام كثير الغثاثة ـ وقد كتب أكثره بعد دهور متطاولة ـ ممثلاً لعلي بن ابي طالب وممثلاً للقرن الأول من الهجرة»[2].

سامحك الله يا رجل. . ! إنك أردت ان تُعرف بين الناس كـ «كاتب» و«باحث» و«أديب» و«محقق» فشهرت سيفك هذا ولكنه كان سيفاً نابياً فصرت كالبائل في بئر زمزم. . ونحن نقول لك:

«ما هكذا تورد ـ يا سعد ـ الإبل».

إذ إنك أردت أن تتواصل مع إبن خلكان في تشكيكه بصحة نسبة النهج إلى الإمام علي عليه السلام ولكنك، وابن خلكان وغيركما كثير، ركبتم افراساً كبت وشهرتم سيوفاً نبت، فبقيتم في

---

(١) المصدر السابق نفسه/ ٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه/ ٣١.

صحرائكم تلهثون وماء زمزم تنشدون، حتى قيض الله لكم من يرشدكم أن بئر زمزم لا يجعل من أيٍّ منكم «رسولاً» كمحمد بن عبد الله ﷺ ولكنكم بقيتم تغطون وجوهكم بغربال لئلاّ ترون شمس الحقيقة، وإلاّ ماذا يعني قول الدكتور شفيع السيد إن «نسبة الشريف الرضي ـ جامع الكتاب ـ إلى البيت العلوي.. يمكن أن تكون مدعاة للشك ودافعاً إلى الإتهام بالتحيز والتعصب.. وقد قال عنه بعض واصفيه: كان شاعراً مفلقاً فصيح النظم ضخم الألفاظ.. وكان مع هذا مترسلاً كاتباً بليغاً متين العبارات، فمن اليسير على مثله إذن أن يؤلف من الكلام ما يشاكل كلام علي رضي الله عنه في جزالة الألفاظ ومتانة السبك[1].

إن الدكتور شفيع السيد مثل «ربعه» يغالط نفسه، بل يدينها من فمه، كيف؟

إذا كان يعترف أن الشريف الرضي «شاعر مفلق» و«فصيح النظم» و«ضخم الألفاظ» و«كاتب بليغ» و«متين العبارة» فماذا يمنعه أن ينسب ما في النهج إلى نفسه ليحلق بشهرته في سماء الأدب والفكر أكثر؟ نحن نعرف، والدكتور يعرف أن ثمة من ينشدون الشهرة يسطون على هذا العمل الإبداعي أو ذاك لينسبوه إليهم لأنهم قاصرون أن يأتوا بمثله. ونحن قد اعترفنا بعدم قصور الشريف الرضي، بل وتمكنه من ادواته، فما الداعي أن ينسب كلاماً لنفسه وهو لغيره؟ هذه أول إدانة للدكتور الفاضل..! وثاني إدانة أنه اعترف أن كلام الإمام علي عليه السلام يتسم بـ «جزالة اللفظ

---

(١) مجلة الهلال العدد ١٢ السنة ١٩٨٣/ ٩٥ ـ ٩٦.

ومتانة السبك»، إذن، إذا كان ما جاء به الشريف الرضي «جزل اللفظ ومتين السبك» فما يمنع أن يكون للإمام علي عليه السلام؟ بل أليس الأقرب والأكثر معقولية أن يكون له عليه السلام من أن يكون للرضي رحمه الله؟ سيما ونحن نعرف مكانة الإمام علي عليه السلام الفكرية والأدبية، وقد مر بنا شيء منها كثير لا يقبل الطعن.

ولكنه بئر زمزم..! يا له من بئر مغرٍ قصّاده الواهمين..! الحاملين على أكتافهم مقولة: «خالف تُعرف».

لعلهم وجدوا خيطاً هنا وخيطاً هناك فشدوا أنفسهم بهما حتى وإن كانا من خيوط العنكبوت، ليتأرجحوا فيراهم الناس وبذلك يحققون الشهرة التي يريدون والمجد الذي ينشدون. وكان أحد الخيوط العنكبوتية ما ذكره ابن أبي الحديد وهو يختم «شرح نهج البلاغة» بكلمات حكيمة قصار، إذ قال: «ونحن الآن ذاكرون ما لم يذكره الرضي مما نسبه قوم إليه (أي الإمام علي عليه السلام) فبعضه مشهور عنه، وبعضه ليس بذلك المشهور ولكنه قد روي عنه وعزي إليه، وبعضه من كلام غيره من الحكماء لكنه كالنظير لكلامه، والمضارع لحكمته، ولما كان ذلك متضمناً فنوناً من الحكمة نافعة رأينا أن لا نخلي هذا الكتاب منه، لأنه كالتكملة والتتمة لكتاب «نهج البلاغة»، وربما وقع في بعضه تكرار يسير شذ عن أذهاننا التنبه له لطول الكتاب، وتباعد أطرافه، وقد عددنا ذلك كلمة كلمة فوجدناها ألف كلمة»[1]. فراحوا يشككون بالنهج كله فيدّعون بأنه ليس من كلام الإمام علي عليه السلام.

---

(١) شرح النهج ٤/ ٤٢٠.

وبذلك حاكوا ابن خلكان الذي بذر بذرة التشكيك الأُولى - كما ذكرنا - إذ قال في وفيات الأعيان ٣/٣: «وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام علي رضي الله عنه، هل جمعه أم جمع أخيه الرضي؟ وقد قيل إنه ليس من كلام علي، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه».

كما حاكى - من قبل - كل من الصفدي في «الوافي بالوفيات» واليافعي في «مرآة الجنان» وابن حجر في «لسان الميزان» وغير أولئك من القدامى والمحدثين منهم الذهبي في «ميزان الاعتدال ١٥/١٠١» في ترجمة الشريف الرضي: إنه هو المتهم بوضع «نهج البلاغة»، ثم قال: «ومن طالع كتابه «نهج البلاغة» جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي، ففيه السب الصريح، والحط على السيدين أبي بكر وعمر.. الخ».

ومنهم محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته لشرح النهج إذ يقول:

«إن في الكتاب من التعريض بصحابة رسول الله ﷺ لا يسلم أن يصح صدوره عن مثل الإمام علي».

وأنكر آخرون أن يكون النهج للإمام علي عليه السلام بسبب ما فيه من ذكر «الوصي والوصاية»[(١)]، أو طول بعض الخطب والكتب، كالقاصعة والأشباح، وعهد مالك بما لم يك مألوفاً في صدر الإسلام[(٢)].

---

(١) أثر التشيع في الأدب العربي/ ٦٦.

(٢) المصدر السابق نفسه/ ٥٦ والإمام علي لأحمد زكي صفوة/ ١٣١.

والسجع قام دليلاً آخر - عندهم - على عدم نسبته إلى الإمام عليه السلام إذ «لم يعهده عصر الإمام ولا عرفه، وإنما طرأ ذلك على العربية بعد العصر الجاهلي وصدر الإسلام وافتتن به أُدباء العصر العباسي، والشريف الرضي جاء من بعد ذلك على ما ألفوه فصنف الكتاب على نهجهم وطريقتهم»[1].

ليس ذلك فحسب بل الوصف ودقته دليلهم الآخر على ذلك الإكتشاف «الذرّي» إذ أن «فيه استفراغ صفات الموصوف، وأحكام الفكرة، وبلوغ النهاية في التدقيق كما تراه في وصف الخفاش والطاووس، والنملة والجرادة، وكل ذلك لم يلتفت إليه علماء الصدر الأول، ولا أدباؤه ولا شعراؤه، وإنما عرفه العرب بعد تعريب كتب اليونان والفرس الأدبية والحكمية، ويدخل في هذا استعمال الألفاظ الإصطلاحية التي عرفت في علوم الحكمة من بعد، كالأين والكيف ونحوهما، وكذلك استعمال الطريقة العددية في شرح المسائل، وفي تقسيم الفضائل أو الرذائل مثل قوله (ويعني الإمام علي عليه السلام): «الاستغفار على ستة معانٍ» و«الإيمان على أربع دعائم» «والصبر واليقين والعدل والجهاد، والصبر منها على أربع شُعب»[2]. و«علم الغيب» كان ركيزتهم الأخرى في هذا الاكتشاف، لأنهم وجدوا في الكتاب ما يُشَم منه ريح ادعاء صاحبه علم الغيب، وهذا أمر يجل عن مثله مقام علي ومن كان على شاكلة علي ممن حضر عهد الرسالة، ورأى نور النبوة[3].

---

(١) مقدمة محمد محيي الدين عبد الحميد لشرح النهج.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

ثم ماذا بعد هذا؟ هل انتهى ما في جعبتهم من «أدلة. . !»؟

كلا، فهم أخذوا عليه «ما فيه من الحث على الزهد، وذكر الموت، وقرض الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام»[1] و«وصف الحياة الاجتماعية على نحو لم يُعرف إلا في عصور متأخرة، ترى في هذه الخُطب طعناً شديداً على الوزراء والحكام والولاة والقضاة والعلماء في السلوك والأخلاق، وفي الذمم والضمائر، واصفاً القضاة بالجهل وعدم المعرفة بأحكام الشريعة»[2].

ثم إن بعض ما رُوي عن علي في (نهج البلاغة) عن غيره في غيره، كقوله:

«كان لي فيما مضى أخٌ عظّمه في عيني صغر الدنيا في عينيه». وهذا مرويّ عن ابن المقفع. وكقوله: «الدنيا دار مجاز. .» يُروى لسحبان وائل[3].

وأخيراً: «خلو الكتب الأدبية من كثير مما في (نهج البلاغة)»[4].

(١) أنظر التشيع في الأدب العربي/ ٦٠ ـ ٦١.
(٢) المصدر السابق نفسه/ ٦٦.
(٣) ترجمة علي بن أبي طالب ـ أحمد زكي صفوة.
(٤) المصدر السابق نفسه/ ١٢٢.

المبحث الثاني

الرد على المشككين بنهج البلاغة

تلك كانت أهم «اكتشافات» المشككين في نسبة ما في (نهج البلاغة) إلى الإمام علي عليه السلام فهل نتركهم ينعمون بما توصلوا إليه!؟ ونحن نعرف أنهم وارثوا «تطلع..!» صاحب بئر زمزم..! (رحمه الله) فقد كان يريد أن يُعرف ويُشار إليه بالبنان.. كما عُرف محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم وأشير إليه بالبنان. فكان له ما أراد..! ولكن شتان بين ما عُرف به الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أشير إليه بالبنان، وما عُرف به صاحب بئر زمزم..! وما أشير إليه بالبنان..!

إذ أينما كان يولّي وجهه يُشار إليه بقولهم: «هذا الذي بال في بئر زمزم..جاء.. ذهب.. قام.. قعد.. الخ» فذكره التاريخ واشتهر..! حتى جاء أحفاده فأرادوا السير على منهجه فلم يجدوا بئر زمزم وعصر بئر زمزم وأهمية بئر زمزم لقوافل العرب، فلجأوا إلى «نهج البلاغة» فأدلوا فيه بآرائهم تلك فكان لهم ما أرادوا من الشهرة.. والصيت.. وإنهم كانوا فرسان حلبتهم. في التشكيك

بأقوال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، وبذلك تواصلوا مع «صاحب بئر زمزم» وابن خلكان. أقول: هل نتركهم و«اكتشافاتهم».. تلك؟

بالتأكيد، لا.. لذلك سنرد عليهم بما يرضي الله جل وعلا وما يرضي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما يرضي العقيدة والمبدأ وما يرضي الضمير وما يرضي المنهج العلمي في مقارعة الحجة بالحجة مستعينين بالله الواحد الأحد وما توفر لدينا من مصادر في هذا المجال.

١ ـ جامع النهج:

قال الشريف الرضي، في كتابه «المجازات النبوية» ص٤٠ عندما ذكر حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أغبط الناس عندي مؤمن خفيف الحاذ[١] ذو حظ من صلاة». قال: ويبين ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: «تخففوا تلحقوا» وقد ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم «نهج البلاغة» الذي أوردنا فيه مختار جميع كلامه صلى الله عليه وعلى الطاهرين من أولاده.

وفي كلامه على الحديث: «أسرعكن لحاقاً بي، أطولكن يداً» قال:

ومثل ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة».

---

(١) الحاذ بالحاء المهملة والذال المعجمة، وهو قول بعضهم طريقة المتن من الإنسان وما وقع عليه من اللبد من ظهر الفرس.

وقد ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم بـ«نهج البلاغة»[1] وعند كلامه على الاستعارة في قوله ﷺ في خطبة له: «ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة» قال:

«ويُروى هذا الكلام على تغيير في ألفاظه لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد أوردناه في كتابنا الموسوم بـ «نهج البلاغة» وهو المشتمل على مختار كلامه عليه السلام في جميع المعاني والأغراض والأجناس والأعراض»[2].

وحول قوله ﷺ: «ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهرٌ وبطنٌ، ولكل حرف حد ولكل حد مقطع». قال: «المراد إن القرآن يتقلب وجوهاً ويحتمل من التأويلات ضروباً كما وصفه أمير المؤمنين علي عليه السلام في كلام له فقال: «القرآن حمّال ذو وجوه».. وقد ذكرنا هذا في كتابنا الموسوم بـ«نهج البلاغة».

وعن قوله ﷺ: «القلوب أوعية بعضها أوعى من بعضها» قال:

«وربما نُسب هذا الكلام إلى أمير المؤمنين (على خلاف في لفظه، فقد ذكرناه في جملة كلامه لكميل بن زياد النخعي في كتاب «نهج البلاغة»[3].

إضافة إلى ذلك فإن الرضي كان يذكر «المجازات النبوية»

---

(١) المجازات النبوية/ ٦٠.

(٢) المصدر السابق نفسه/ ١٥٢.

(٣) المصدر السابق نفسه/ ١٨٨.

أثناء شرحه النهج كقوله ﷺ: «العين: وكاء له»[1]. فقال الرضي: وهذا من الاستعارات العجيبة.. وقد تكلمنا على هذه الاستعارة في كتابنا الموسوم بـ«مجازات الآثار النبوية».. ومن الناس من ينسب هذا الكلام إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام، وقد ذكر ذلك محمد بن يزيد المبرد في كتاب «المقتضب» في باب اللفظ بالحروف، وفي الأظهر الأشهر إنه للنبي عليه الصلاة والسلام.

فعلى ماذا تدل عبارة «وفي الأظهر الأشهر» ألا تدل على أمانة تاريخية في نقل النصوص والتثبت من صحة نسبتها؟ إذ لو كان «النهج» من وضع الرضي لما احتاج إلى أن يحتاط هذا الاحتياط فيرفع كلاماً ظهر له أنه ليس للإمام علي عليه السلام بل هو للرسول ﷺ، تلك واحدة.

وفي كتابه رحمه الله الموسوم بـ «في حقائق التأويل» والذي طُبع منه الجزء الخامس فقط يقول الرضي في ص١٦٧: «وإني لأقول أبداً: لو كان كلامه يلحق بغباره، أو يجري في مضماره بعد كلام رسول الله ﷺ لكان ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام، إذ كان متفرداً في الفصاحة، لا تزاحمه عليه المناكب، ولا يلحق بعقوه الكادح الجاهد، ومن أراد أن يعلم برهان ما أشرنا إليه فلينعم النظر في كتابنا الذي ألّفناه ووسمناه بـ «نهج البلاغة»، ويشتمل على مختار جميع الواقع إلينا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، في جميع الأنحاء والأغراض، والأجناس والأنواع من خطب وكتب، ومواعظ وحكم..». وتلك ثانية.

---

(١) المصدر السابق نفسه/ ٢٨٤.

والثالثة: قال الرضي رحمه الله في جانب من مقدمة نهج البلاغة:

«فإني كنت في عنفوان السن وغضاضة الغصن، ابتدأت بتأليف كتاب في «خصائص الأئمة عليهم السلام» يشتمل على محاسن أخبارهم، وجواهر كلامهم، حداني عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، ولما فرغت من الخصائص التي تخص أمير المؤمنين علياً صلوات الله عليه، وعاقت عن إتمام الكتاب محاجزات الأيام، ومماطلات الزمان، وكنت قد بوبت ما خرج من ذلك أبواباً، وفصلته فصولاً فجاء في آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في المواعظ والحكم والأمثال والآداب دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة، فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره معجبين ببدائعه، ومتعجبين من نواصعه، وسألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوي على المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه ومتشعبات غصونه من خطب وكتب ومواعظ وأدب»[1].

وقوله وهو يذكر قول الإمام علي عليه السلام: «تخففوا تلحقوا» فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة، وأنفع نطفتها من حكمة، وقد نبهنا في كتاب «الخصائص» على عظم قدرها، وشرف جوهرها[2]. تلك الثلاث تدل، بما لا يقبل الطعن، أن الشريف الرضي هو جامع «نهج

(١) شرح النهج ٢/ ٢٦٣.

(٢) المصدر السابق نفسه ١/ ٤٤.

البلاغة» وليس المرتضى رحمه الله. ومن يرى غير ذلك ـ بعد تلك التصريحات من الشريف الرضي ـ فهو: «سفه الرأي وإصرار على الخطأ.. فالرضي روى ما رأى وأورد ما ورد..»[1].

٢ ـ الغثاثة:

مررنا بكلام لمحمود شاكر تجنى فيه على الإمام علي عليه السلام فقال إن في كلامه ـ في النهج ـ كثيراً من (الغثاثة) وكان في طرحه هذا (الاكتشاف) مفتقراً إلى الحجة المنطقية المقنعة، لذلك فإننا سنسلك معه طرقاً علمية ومنهجية لعله يستنير بها هو وغيره، مما أرهقت أبصارهم وبصائرهم ظلمة الطريق التي سلكوها والدرب الذي اختاروه لأنفسهم.

يقول الشريف الرضي في مقدمة نهج البلاغة: «كان أمير المؤمنين علي مشرّع الفصاحة وموردِّها، ومنشىء البلاغة ومولدها، ومنه ظهر مكنونها، وعنه أخِذَت قوانينها، وعلى أمثلته أخذ كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصّروا، وتقدّم وتأخروا؛ لأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي.. وهو البحر الذي لا يساجل، والجم الذي لا يُحافَل»[2].

أما الشيخ محمد عبده فقد قال في مقدمة شرحه «نهج

---

(١) المصدر السابق نفسه ١/ ٤٩. وانظر خصائص الأئمة/ ١٨٧، الذي ألفه الرضي سنة ٣٨٣هـ.

(٢) نهج البلاغة ٢٠/ ٦٥.

البلاغة»: «فقد أوفى لي حكم القدر بالإطلاع على كتاب «نهج البلاغة» مصادفةً بلا تعمد، أحببته على تغير حال، وتبلبل بال، وتزاحم أشغال، وعطلة من أعمال، فحسبته تسلية وحيلة للتخلية فتصفّحت بعض صفحاته، وتأملت جملاً من عباراته، من مواضع مختلفات، وموضوعات متفرقات، فكان يُخَيل إليَّ في كل مقام أن حروباً شبت وغارات شُنّت، وأنّ للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة.. وأن جحافل الخطابة وكتائب الذرابة، في عقود النظام، وصفوف الانتظام، تنافح بالصفيح الأبلج، والقويم الأملج.. وإن مدبّر تلك الدولة، وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغير المشاهد، وتحوّل المعاهد؛ فتارة كنت أجدني في عالم يغمره من المعاني أرواح عالية في حُلَل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية.. وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً لا يشبه خلقاً جسدانياً، فُصِل عن الموكب الإلهي، واتصل بالروح الإنساني، فخلعه عن غاثيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى، ونما به إلى مشهد النور الأجلى، وسكن به إلى عمار جانب التقديس، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس»[1].

وهذا عبد الحميد الكاتب يقول: «حفظت سبعين خطبة من خطبه (أي من خطب الإمام علي عليه السلام) ففاضت ثم فاضت».

(١) مناقب آل أبي طالب ٢/ ٧.

ولما سُئل ما الذي خرّجه في البلاغة؟ قال: «خطب الأصلع»[1].

ومثل ذلك قال ابن نباتة المصري: «حفظت من الخطابة كنزاً، لا يزيده الإنفاق إلا سعة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب».

أما الشريف المرتضى فقد روى «إن الحسن البصري كان بارع الفصاحة بليغ المواضع كثير العلم، وجميع كلامه في الوعظ، وذم الدنيا، أو جلّه مأخوذ لفظاً ومعنى، أو معنى دون لفظ، من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو القدوة والغاية»[2].

وكان ابن المقفع يقول عن خطب الإمام علي عليه السلام: «شربت من الخطب رياً ولم أضبط لها روياً، ففاضت ثم فاضت فلا هي نظاماً، وليس غيرها كلاماً»[3].

أما الأستاذ أحمد محمد الحوفي فقد أوجز لنا في كتابه «بلاغة الإمام علي» صفات تعبيرات الإمام علي عليه السلام فقال:

١ ـ تخير المفردات: «بحيث تنسجم مع الناحية الصوتية فتجيء خفيفة على اللسان، لذيذة الوقع في الآذان، موافقة لحركات النفس، مطابقة للعاطفة التي أزجتها والفكرة التي

---

(١) العقد الفريد ٢/ ٣٥٧.

(٢) شرح ابن هيثم ج١.

(٣) انظر: إتقان المقال ١٩٢، أسد الغابة ٢/ ٤٢. الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٥٦٧.

أملتها». ويورد أمثلة على ذلك مثل قوله في كتاب إلى عماله على الخراج:

«إنكم خزان الرعية، ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة». وقوله لمعاوية:

«لست بأمضى على الشك مني على اليقين». وقوله: «كلما أطل عليكم منسر.. أغلق كل رجل بابه، وانجحر انجحار الضبة في جحرها والضبع في وجارها».

وقوله: «من أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه». وقوله: «إن تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم».

٢ ـ قوة التعبير: «ومن السهل أن نجد كثيراً مما يتصف بالقوة والجزالة والفخامة في خطب الإمام علي وفي رسائله، تعبيراً عن عواطفه وأفكاره التي تقتضي التعبير القوي الفخم الملائم لشدتها وقوتها وحرارتها». ومن الأمثلة والنماذج قوله:

«والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها، ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً، حتى يأتي عليَّ يومي». وقوله:

«ألا وإني لم أرَ كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى

يجرُّ به الضلال، ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن، ودللتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل».

وقال في خطبة يخوّف بها أهل النهروان: «فأنا نذيرٌ لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط على غير بينة من ربكم ولا سلطان مبين معكم، قد طوّحت بكم الدار، واحتبلكم المقدار، وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة، فأبيتم عليَّ إباء المخالفين، المنابذين، حتى صرفت رأيي إلى هواكم، وأنتم معاشر أخفّاء الهام، سفهاء الأحلام، ولم آتِ ـ لا أبا لكم ـ بجراً ،ولا أردت بكم ضراً»

٣ ـ سهولة التعبير: مثل قوله في كتاب إلى عبد الله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر: «فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً، وقد كنت حثثت الناس على لحاقه، وأمرتهم بغياثه قبل الوقفة، ودعوتهم سراً وجهرا، وعوداً وبدءا، فمنهم الآتي كارهاً، ومنهم المعتل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً».

وقوله في رسالة إلى عمر بن العاص قبل التحكيم:

«أما بعد، فإن الدنيا مشغلة عن غيرها، ولن يصيب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً يؤيده فيها رغبةً، ولن يستغني صاحبها بما نال عما لم يبلغ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، والسعيد من وُعظ بغيره، فلا تحبط أبا عبد الله أجرك».

وقوله في خطبة له:

«اسمعوا قولي، وأطيعوا أمري فوالله لئن أطعتموني لا تغوون، وإن عصيتموني لا ترشدون، خذوا للحرب أهبتها، وأعدّوا لها عدّتها، فقد شبّت نارها. . ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء بأولى في الجد في غيهم وضلالتهم من أهل البِر والزهادة والإخبات في حقهم وطاعة ربهم.

إني والله لو لقيتهم فرداً وهم ملء الأرض ما باليت ولا استوحشت، وإني من ضلالتهم التي هم فيها والهدى الذي نحن عليه لعلى ثقةٍ وبيّنة ويقين وبصيرة.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[1].

٤ ـ قِصر الفقرات: مثل قوله لمّا أغار النعمان بن بشير الأنصاري على عين التمر: «منيت بمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت، لا أبا لكم، ما تنتظرون بنصركم ربكم؟ أما دينٌ يجمعكم، ولا حمية تحشّمكم، أقوم فيكم مستصرخاً، وأناديكم متغوثاً، فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي أمراً، حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءة فما يدرك بكم ثأر، ولا يبلغ بكم مرام».

أو كقوله:

«فتداكوا عليّ تداك الإبل يوم وردها، وقد أرسلها راعيها، وخلعت مثانيها، حتى ظننت أنهم قاتليّ، أو بعضهم قاتل بعض

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤١.

لديّ، وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره، حتى منعني القوم، فما وجدتني يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد ﷺ فكانت معالجة القتال أهون عليّ من معالجة العقاب، وموتات الدنيا أهون عليّ من موتات الآخرة».

وقوله في كتاب إلى أمراء جيوشه:

«ألا وإن لكم عندي ألاّ احتجز دونكم سراً إلا في حرب، ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم، ولا أؤخر لكم حقاً عن محلّه، ولا أقف به دون مقطعه، وأن تكونوا عندي في الحق سواء، فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة ولي عليكم الطاعة، ولا تنكصوا عن دعوة، ولا تفرطوا في صلاح، وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق».

٥ ـ كثرة الصيغ الإنشائية: وهي «الأمر والنهي والاستفهام والترجّي والتمني والنداء والقسم والتعجب». وهي أقوى من الصيغ الخبرية تجديداً للسامعين، وأشد تنبيهاً وأكثر إيقاظاً، وأدعى إلى مطالبتهم بالمشاركة في القول وفي الحكم، وهي في الوقت نفسه أدق في تصوير مشاعر الخطيب وأفكاره، لأن أفكاره ومشاعره المتنوعة في حاجة إلى أساليب متغايرة تفصح عنها، ثم إن مغايرة الأساليب تستتبع مغايرة في نبرات الصوت وفي الوقفة والإشارة وطريقة الإلقاء. وهذا كله عون على الوضوح من ناحية وعلى التأثير في السامعين من ناحية أخرى».

ذلك ما قاله الدكتور أحمد محمد الحوفي، ولكي يعزز قوله بالدليل أورد أمثلة على ما قال وهي:

١ ـ من الأمر قوله: «فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ».

و«فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته، ووقائعه ومَثُلاته، واتعظوا بمثاوي خدودكم، ومصارع جنوبكم، واستعيذوا بالله من لواقح الكِبر، كما تستعيذون من طوارق الدهر». وقوله: «ليتأسّ صغيركم بكبيركم وليرأف كبيركم بصغيركم».

ـ من النهي قوله: «فلا تجعلن للشيطان فيك نصيباً، ولا عن نفسك سبيلاً». وقوله: «ولا ترخصوا لأنفسكم، فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية، ولا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب، ولا تباغضوا فإنها الحالقة».

و«فلا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنما هو ظل ممدود إلى أجل معدود».

و«فإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا».

و«عباد الله لا تركنوا إلى جهّالكم، ولا تركنوا إلى أهوائكم».

و«لا يؤنسنكم إلا الحق، ولا يوحشنكم إلا الباطل».

و«فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الجرب».

و«فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما

يُتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حقٍ قيل لي، فلا تكفّوا عن مقالةٍ بحق أو مشورةٍ بعدل».

٣ ـ ومن الاستفهام قوله: «أبعد إيماني برسول الله ﷺ وهجرتي معه، وجهادي في سبيل الله، أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللت، إذن، وما أنا من المهتدين».

وقوله «هل يُحس به ـ ملك الموت ـ إذا دخل منزلاً؟ أم تراه إذا توفّى أحداً؟ بل كيف يتوفى الجنين في بطن أمه؛ أيلج عليه من بعض جوارحها؟ أم الروح أجابته بإذن ربها؟ أم هو ساكن معه في أحشائها؟ كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله؟».

وقوله «أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى والأبصار اللامحة إلى منازل التقوى؟

أين القلوب التي ذهبت لله وعوقدت على طاعة الله؟».

٤ ـ ومن الترجي قوله: «فاسمعوا قولي، وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تنتضى فيه السيوف».

و«لعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة».

و«لا تعجل في عيب أحد بذنبه، فلعله مغفورٌ له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية فلعلك معذبٌ عليها».

و«هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعل بالحجاز وباليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع».

٥ ـ ومن التمني، قوله: «يا أشباه الرجال ولا رجال.. لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم».

وقوله: «قد دارستكم الكتاب، وفاتحتكم الحجاج، وعرفتكم ما أنكرتم، وسوغتكم ما مججتم، لو كان الأعمى يلحظ، أو النائم يستيقظ».

٦ ـ ومن النداء، قوله: «أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة».

وقوله: «فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله».

وقوله، يخاطب فئة من الناس: «أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم كلامكم يوهم الصم الصلاب، وفعلكم يُطمع فيكم الأعداء..».

٧ ـ ومن القسم، قوله: «أما والله ما أتيتكم اختياراً ولكن جئت إليكم سوقاً».

وقوله: «والله لو قتلتم على هذا دجاجة لعظم عند الله قتلها، فكيف بالنفس التي قتلها عند الله حرام؟».

٨ ـ ومن التعجب، قوله: «سبحانك ما أعظم شأنك، سبحانك ما أعظم ما نرى من ملكوتك، وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك، وما أسبغ نعمك في الدنيا، وما أصغر عظيمه في جنب قدرتك، وما أصغرها في نعم الآخرة».

وقوله: «إستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته، فإن غداً من اليوم قريب».

وقوله: «ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر».

وقوله: «فيا عجباً، عجباً والله يميت القلب، ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم».

٩ ـ السجع والترسل، جاء في إحدى خطبه عليه السلام: «فليقبل امرؤ كرامة بقبولها، وليحذر قارعة قبل حلولها، ولينظر امرؤ في قصير أيامه، وقليل مقامه، في منزل حتى يستبدل به منزلاً، فليصنع لمتحوله ومعارف منتقله، فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه، وتجنب من يرديه، وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصره، وطاعة هادٍ أمره، وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، وتقطع أسبابه، واستفتح التوبة وأماط الحوبة، فقد أقيم على الطريق وهدي نهج السبيل».

ومن قوله حين أنكر عليه الخوارج تحكيم الرجال: «إنّا لم نحكّم الرجال؛ إنما حكّمنا القرآن، هذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال، ولما دعانا القوم إلى أن نحكّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد قال الله ـ عز من قائل ـ : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]. فردُّه إلى الله أن نحكِّم بكتابه وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنة رسول الله ﷺ في التحكيم... فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل،

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

ويتثبت العالم، ولعل الله أن يصلح في الهدنة أمر هذه الأمة، ولا تؤخذ بأكظامها» (أي مخارج الأنفاس).

١٠ ـ التوازن: كثيراً ما تجيء الجمل في «نهج البلاغة» متوازنة، بأن يتساوى عدد كلماتها، أو تتماثل أوزان نهاياتها، وهذا ضرب آخر من موسيقى التعبير يحببه إلى السمع ويقربه إلى الذوق.

يقول الدكتور الحوفي: «والتوازن أو الموازنة بهذا المعنى أهم من السجع، لأن السجع ورود أجزاء الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد مثل: القريب والحسيب والغريب، أما الموازنة بين أواخر الكلمات فهي مثل: القريب والشهيد والجليل. فالوزن واحد والحرف الأخير مختلف».

ومن الموازنة قول الإمام علي عليه السلام: «لم يَؤُده خلق ما ابتدأ، ولا تدبير ما ذرأ، ولا وقف به عجز عما خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر، بل قضاء متقن وعلم محكم، وأمر مبرم».

وقوله: «إن غاية تنقصها اللحظة، وتهدمها الساعة، لجديرة بقصر المدة، وإن غائباً يحدوه الجديدان، الليل والنهار، لحري بسرعة الأوبة، وإن قادماً يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة، فيا لها حسرة على ذي غفلة، أن يكون عمره عليه حجة، وأن تؤديه أيامه إلى الشقوة، نسأل الله ـ سبحانه ـ أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره النعمة، ولا تقصر عن طاعة ربه غاية، ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة».

وقوله: «إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم، وإن

ضحكوا. . ويشتد حزنهم وإن فرحوا، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا».

ويقول الدكتور الحوفي: «وقد يجيء التوازن في داخل الجمل لا في نهاياتها، فيؤلف انسجاماً في نطق الكلمات وفي سماعها، مثل قوله عليه السلام: الحمد لله غير مقنوط من رحمته، ولا مخلوٌ من نعمته، ولا ميؤوسٌ من مغفرته، ولا مُستَنكَفٌ عن عبادته، الذي لا تبرح منه رحمة، ولا تُفقد له نعمة».

فقد وازن عليه السلام بين مقنوط ومخلوق وميؤوس، إضافة إلى السجع، كما استعرض الدكتور الحوفي مطالب بلاغية أخرى كالجناس والطباق والمقابلة والتوشيح. . . مما ورد في خطب وأحاديث ومراسلات ووصايا الإمام علي عليه السلام. كما استعرض التشبيه والكناية والاستعارة والمجاز. . التي برع فيها الإمام عليه السلام براعة منقطعة النظير، في شتى شؤون المعرفة، والعقل، والنفس، وفي مختلف قضايا البشر والدين والدنيا.

وقبل الدكتور الحوفي قال معاوية، وهو يرد على ابن محفن عندما قال له: جئتك من عند أعيا الناس، قال له معاوية: «ويحك، كيف يكون أعيا الناس فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره». وقبل معاوية قال الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مدينة العلم، أو الحكمة، وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه». صدق رسول الله وكذب محمود محمد شاكر في ادعائه إن في قول الإمام «غثاثة».

اللهم اشهد إن كانت البلاغة بفروعها والفصاحة بأصالتها،

ونقائها وصفائها التي وردت على لسان إمام البلاغة وسيد الفصحاء الإمام علي عليه السلام والتي وقفنا على بعضها في ما نقلنا من فقرات. . أقول: إن كانت تلك البلاغة والفصاحة «غثاثة» فأنا أول المتمسكين بها؛ فغث الإمام سمين وسمين أعدائه غث، لأنه رضع لبانها من منبع النبوة الصافي فوضع لنا أسسها وشيد بنيانها فكانت أقوى الأسس وأجمل بنيان وأحكمه.

ولا نريد أن نضيف شيئاً إلى ما جاء به الدكتور الحوفي عسى أن تكون تلك الشواهد على بلاغة وفصاحة الإمام علي عليه السلام شموعاً تنير درب التائهين الحيارى، أمثال محمود محمد شاكر وقاه الله يوم لا مفر منه.

٣ ـ عائدية نهج البلاغة:

لقد تكلمنا في الفقرة (١ ـ جامع النص) وبيّنا بالدليل الواضح أن الشريف الرضي ـ وليس المرتضى ـ هو جامع «النهج» ورددنا على المشككين في كون «النهج» للإمام علي عليه السلام أو أن بعضه له وبعضه ليس له، ثم رددنا على محمود محمد شاكر في فقرة (٢ ـ الغثاثة)، وعلينا في هذه الفقرة أن نتبسط في الكلام فنبين ـ بالحجة الدامغة، كما هو منهجنا دائماً ـ أن ما في «نهج البلاغة» من ألفه إلى يائه يعود إلى الإمام علي عليه السلام وللرضي جهد الجامع لا الواضع.

وقبل أن نورد ما عندنا من دليل على عائدية ما في «النهج» إلى الإمام علي عليه السلام علينا أن نستأنس بأقوال قيلت في بلاغته

وفصاحته عليه السلام لأنها ستساعدنا على فهم شخصية علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا المجال وبذلك نكون قد مهدنا لموضوعنا وسهلنا على المشككين كثيراً من مغاليق أفهامهم ليمكن فتحها ليطلوا على رحاب الحقيقة الواضحة.

لنقرأ قول غيره فيه:

قال معاوية بن أبي سفيان: «ما رأيت أحداً يخطب ليس محمداً أحسن من علي إذا خطب، فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره».

وقال الحارث الأعور: «والله لقد رأيت علياً وإنه ليخطب قاعداً كقائم ومحارباً كمسالم».

وقال الشريف الرضي: في مقدمة «النهج»: «وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ».

أما ابن الجوزي فقال في التذكرة: «كان علي ينطق بكلام قد حفَّ بالعصمة، ويتكلم بميزان الحكمة، كلام ألقى الله عليه المهابة، فكل من طرق سمعه راقه فهابه، وقد جمع الله له بين الحلاوة والملاحة، والطلاوة والفصاحة، لم تسقط له كلمة ولا بارت له حجة، أعجز الناطقين، وحاز قصب السبق في السابقين».

ولنقرأ قول محمد بن طلحة الشافعي في (مطالب السؤول): «الفصاحة تنسب إليه ـ أي الإمام علي عليه السلام ـ والبلاغة تنقل عنه والبراعة تُستفاد منه، وعلم البيان والمعاني غزيرة فيه».

ونكرر قول عبد الحميد الكاتب: إذ سُئل ما الذي خرجك في البلاغة؟

قال: «حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثم فاضت».

وكذا قال ابن المقفع.

ولنقرأ قول ابن أبي الحديد المعتزلي في طيات شرح «النهج»: «واعلم أننا لا يخالجنا الشك في أنه عليه السلام أفصح من كل ناطق بلغة العرب من الأولين والآخرين إلا من كلام الله سبحانه، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله . . حتى يقول: «واعلم أن تكلف الاستدلال على أن الشمس مضيئة يُتعب، وصاحبه منسوب إلى السفه، وجاحد الأمور المعلومة علماً ضرورياً أشد سفهاً ممن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها.

وأخيراً قال محمد عبده في مقدمة شرح «نهج البلاغة» «مهما اختلفت الناس في شيء من مناقب أمير المؤمنين وفضائله وميزاته وخصائصه فإنهم لا يختلفون بأنه إمام الفصحاء وسيد البلغاء وإن كلامه أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله وكلام نبيه، وأغزره مادة وأرفعه أسلوباً، وأجمعه لجلائل المعاني».

تلك كانت نتف من أقوال منها من مضطرين ومنها من منصفين ولكنها جميعاً كانت تقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام سيد البلغاء وسيد الفصحاء. وإذا ما عرفنا أن فترة تولي الإمام عليه السلام كانت فترة صاخبة؛ فمن حرب الجمل إلى حرب صفين فالنهروان، فإنه من الطبيعي أن يعالج الإمام عليه السلام تلك الأحداث

بكتبه وخطبه ووصاياه. وهي مسألة طبيعية لكل حاكم وفي كل عصر، وإذا كان ذلك طبيعي ـ وهو طبيعي فعلاً ـ فإن من الطبيعي جداً أن ينبري من المختصين إلى جمع تلك الخطب والأحاديث والمراسلات والوصايا، سواء في زمانه أو بعد زمانه، كوثائق تاريخية عن عهده عليه السلام.

وقد بلغ اهتمام الناس بكلامه عليه السلام وشغفهم به أن أطلقوا على بعض خطبه أسماء خاصة للتعريف بها، والتمييز بينها، مثل:

«التوحيد، والشقشقية، والهداية، والملاحم، واللؤلؤة، والغراء، والقاصفة، والافتخار، والأشباح، والدرة اليتيمة، والأقاليم، والوسيلة، والطالوتية، والقصبية، والنخيلة، والسليمانية، والناطقة، والدامغة والفاضحة والمخزون، والديباج، والبالغة، والمنبرية والمكاييل، والمؤنقة، ـ أي الخالية من الألف ـ والعارية عن النقط، والزهراء.

إذن، اهتم الناس بجمع خطب وأحاديث وكتب ووصايا الإمام عليه السلام ولم يكن الشريف الرضي رحمه الله هو السابق إلى جمع كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام ولا الأول في تدوينه؛ فقد عني الناس به عناية بالغة، وحظي بما لم يحظ به كلام أحد من البلغاء ـ على كثرتهم ـ قبل الإسلام وبعده، ودوّنوه في عصره، وحفظوه في أيامه، وكتبوه ساعة إلقائه.

هذا زيد بن وهب الجهني، وكان من أصحابه، وشهد معه بعض مشاهده، جمع كتاباً من خطبه، سلام الله عليه، وهذا الحارث الأعور، صاحبه وكان من المنقطعين إليه، والمجاهدين

بحبه وتفضيله على غيره، روى عنه وأخذ من علومه، الذي توفي سنة ٦٥ هـ. فقد دوّن بعض خطبه عليه السلام ساعة إلقائها.

وهذا الأصبغ بن نباتة المجاشعي، وكان من خاصة أمير المؤمنين، روى للناس عهده للأشتر النخعي لما ولاّه مصر، ووصيته لولده محمد ابن الحنفية وشريح القاضي وكميل بن زياد النخعي، ونوف البكالي، وضرار بن ضمرة الضبائي.. كلهم سمعوا بعض كلامه فحفظوه، ورووه للناس كما سمعوه.

وذكر الجاحظ: إن خطب علي عليه السلام كانت مدونة محفوظة مشهورة.

وقال ابن واضح في كتابه «مشاكلة الناس لزمانهم»: كان علي بن أبي طالب عليه السلام، مشتغلاً أيامه كلها في الحرب إلاّ أنه لم يلبس ثوباً جديداً، ولم يتخذ ضيعة، ولم يعقد على مال (أي لم يجمعه) إلاّ ما كان بينبع والبعبعة (عين بالمدينة) مما يتصدق به، وحفظ الناس عنه الخطب، فإنه خطب بأربعمائة خطبة، حفظت عنه، وهي التي تدور بين الناس، ويستعملونها في خطبهم».

وأحصى المسعودي ـ في مروجه ـ ما كان محفوظاً من خطبه عليه السلام فقال:

«والذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة ونيف وثمانين».

وقال سبط بن الجوزي الحنفي في تذكرة الخواص: «أخبرنا

الشريف أبو الحسن علي بن محمد الحسيني باسناده إلى الشريف المرتضى قال: «وقع إليّ من خطب أمير المؤمنين عليه السلام أربعمائة خطبة».

وذكر القطب الراوندي أنه وجد بمكة كتاب في واحد وعشرين جزءاً كله في كلام الإمام علي عليه السلام.

تلك هي أقوال من تقدموا على الشريف الرضي بزمان طويل، إذ أكّدت أن خطب الإمام علي عليه السلام كانت مدونة ومحفوظة وقد أربت على أربعمائة خطبة. وإذا ما علمنا أن الشريف الرضي لم يختر منها إلاّ (١٢١) خطبة فقط ظهر لنا جلياً أن ما في «النهج» هو للإمام علي عليه السلام وليس من وضع الشريف الرضي أو غيره، ما خلا ما صرّح به ابن أبي الحديد؛ أنه اختار جملاً قصاراً في آخر النهج منها للإمام ومنها لغيره ولكنها تشبه كلامه، وليته ما اختارها وليته ما صرّح به لأنها كانت قميص عثمان في يد المشككين، ولكن الحقيقة تبقى كما هي لا يمكن نكرانها إذا ما انبرى لها من يكشف عن وجهها الناصع، وها نحن فعلنا ذلك مع من فعل من قبلنا.

وزيادة في التأكيد على أن ما في «النهج» هو للإمام علي عليه السلام نشير إلى بعض المؤلفات التي أُلّفت قبل «النهج» الذي ألّفه الشريف الرضي، وكلها تتحدث عن كلام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وهي:

١ ـ خطب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر في الجمع والأعياد وغيرها، لزيد بن وهب الجهني، وهو أول كتاب جمع

في كلامه عليه السلام، إذ إن مؤلفه أدرك الجاهلية والإسلام، وتوفي سنة ٩٦هـ[١].

٢ ـ خطب أمير المؤمنين عليه السلام المروية عن الإمام الصادق عليه السلام. وقد وصلت نسخة من هذا الكتاب إلى السيد علي ابن طاوُس (عليه الرحمة) وكتب عليها أنها كتبت بعد المائتين من الهجرة. وعن هذا الكتاب، والذي بعده نقل الرضي خطبة الأشباح في «نهج البلاغة»[٢].

٣ ـ خطب أمير المؤمنين عليه السلام، لمسعدة بن صدقة العبدي، وهو من علماء الجمهور، وكان هذا الكتاب موجوداً إلى زمن السيد هاشم البحراني المتوفى سنة ١٠٧ أو ١٠٩ونقل عنه كثيراً في تفسيره (البرهان) وذكره في مقدمة كتابه المذكور.

٤ ـ كتاب الخطبة الزهراء لأمير المؤمنين لأبي مخنف لوط ابن يحيى بن مخنف بن سليم الأزدي شيخ أصحاب الأخبار في الكوفة المتوفى سنة ١٥٧ هـ.

٥ ـ خطب أمير المؤمنين: لإسماعيل بن مهران بن أبي النصر زيد السكوني الكوفي، ذكره النجاشي في فهرسه.

٦ ـ خطب أمير المؤمنين عليه السلام: للسيد الجليل عبد العظيم بن عبد الله بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام.

٧ ـ خطب علي عليه السلام: لإبراهيم بن الحكم بن ظهير

---

(١) انظر نهج البلاغة ١/ ٦٥٩.

(٢) الإمام علي، روائع نهج البلاغة.

الفزاري. وقد ذكره الطوسي في فهرسه، وهو من أصحاب أواخر القرن الثاني.

٨ ـ خطب أمير المؤمنين عليه السلام: برواية الواقدي أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد المدني المتوفى سنة **٢٠٧**.

٩ ـ خطب علي عليه السلام: لأبي الفضل نصر بن مزاحم المنقري الكوفي العطار، وكان من علماء الأخبار وشيخ أصحاب المغازي والسير، وصاحب كتاب «صفّين» الذي احتوى على كثير من خطب الإمام وكتبه ووصاياه، يوافق بعضها بعض ما جاء في «نهج البلاغة» وهو من علماء القرن الثاني. إذ قال إبن النديم عنه إنه من طبقة أبي مخنف، وقيل إن وفاته كانت سنة **٢٠٢**هـ. ولا شك أن الرضي اعتمده مصدراً من مصادره في (النهج)

١٠ ـ خطب علي كرّم الله وجهه: لأبي المنذر بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة **٢٠٥** هـ وقيل **٢٠٦** هـ. وكان قد نشأ في الكوفة، وهو نسّابة وعالم بأخبار العرب وأيامها، وقد اتصل ابوه بالإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، فأخذ هشام عن أبيه أخباره وعلومه، ولأنه من بيت معرفة بالتشيع، لأهل البيت عليهم السلام لم يدخله الذهبي بين الحفاظ المشاهير وسماه محمد بهجة الأثري ـ من المعاصرين ـ بـ«الزنيم» في حاشيته على «بلوغ الإرب» **٢/ ٥**. ولهذا السبب انمحت آثاره.

١١ ـ خطب علي وكتبه إلى عمّاله: لأبي الحسن علي بن محمد المدائني، وقد ذكره إبن النديم في فهرسه. وقد صنّف كتباً كثيرة منها: «خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم» و«خطب علي وكتبه إلى عماله»

و«كتاب من قتل الطالبيين» و«كتاب الفاطميات».

وقال صاحب الكنى والألقاب إنه قد توفي سنة **٢٢٥** هـ.

١٢ ـ خطب أمير المؤمنين عليه السلام: لصالح بن حماد الرازي، وقد عدّه النجاشي في فهرسه من رجال المائة الثالثة، إذ كان قد صحب الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

١٣ ـ مائة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب: وقد اختارها الجاحظ من كلام الإمام علي عليه السلام، واختار الرضي منها في «النهج» وذكرها الخوارزمي في «المناقب» بسنده عن أبي بكر محمد بن دريد صاحب أبي عثمان الجاحظ فقال: كان الجاحظ يقول لنا زماناً إن لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب مائة كلمة كل كلمة منها تفي بألف كلمة من محاسن كلام العرب، قال: وكنت أسأله دهراً بعيداً أن يجمعها لي، ويمليها علي، وكان يعدني بها، ويتغافل عنها، ظناً بها.. فلما كان آخر عمره أخرج جملة الكلمات المائة هذه ثم ذكرها.

وروي ذلك في «الحدائق الوردية» عن كتاب «جلاء الأبصار» عن الحاكم بإسناده إلى الجاحظ.

ولم يرض الآمدي عن الجاحظ لاقتصاره على هذه المائة وقال عنها:

إنها (بعض من كل، وطلّ من وبل) مما دعاه إلى تأليف كتابه (غرر الحكم ودرر الكلم).

١٤ ـ رسائل أمير المؤمنين عليه السلام وأخباره وحروبه: ذكره

الطوسي في فهرسه بأنه إبراهيم بن عاصم بن سعد بن مسعود الثقفي الكوفي، وكان زيدي الرأي ثم تحول إلى الإمامية، كما قال صاحب تأسيس الشيعة، وذكر وفاته بأنها في سنة **٢٨٣**هـ.

١٥ ـ الخطب المعربات: لإبراهيم بن جلال بن عاصم بن مسعود الثقفي صاحب كتاب رسائل أمير المؤمنين عليه السلام وأخباره وحروبه الذي ذكرناه بالرقم (١٤).

قال عنه السيد هبة الدين في كتابه «ما هو نهج البلاغة» وهو ينقل عن النجاشي: «إن هذا الكتاب من جملة المؤلفات في كلام أمير المؤمنين عليه السلام».

ويحتمل عبد الزهراء الحسيني الخطيب في كتابه «مصادر نهج البلاغة وأسانيده» أن يكون إسم هذا الكتاب «الخطب المقريات» إذ قال: «وقد يسمى هذا الكتاب بالخطب المقريات (بالقاف بعد الميم والمثناة التحتانية بعد الراء»).

١٦ ـ خطب أمير المؤمنين عليه السلام: ذكر النجاشي لأبي إسحاق إبراهيم بن سليمان بن عبيد الله بن خالد الخراز الكوفي النهمي (نسبة إلى بطن من همدان) بعنوان (الخطب) وذلك عن رواة آخرهم حميد بن زياد المتوفى سنة ٣١٠هـ مما يدل على أن النهمي كان في أواخر القرن الثالث الهجري، وذكره السيد هبة الدين في كتابه (ما هو نهج البلاغة) بأنه لأمير المؤمنين عليه السلام».

١٧ ـ خطب أمير المؤمنين عليه السلام مع شرحها: للقاضي النعمان المصري المتوفى سنة (٣٦٣هـ) عدّه من تصانيفه في كتابه (الهمّة في معرفة الأئمة) وقد ألّفه سنة ٣١٠هـ. وكان الرضي قد ولد سنة

٣٥٩هـ. وهذا يعني أن الكتاب لم يكن شرحاً لـ «نهج البلاغة» كما صدر عن البعض، وقد نبّه إلى ذلك صاحب كتاب «الذريعة».

١٨ ـ خطب امير المؤمنين عليه السلام.

١٩ ـ مواعظ علي عليه السلام.

٢٠ ـ رسائل علي عليه السلام، وقد ذكره النجاشي في فهرسه.

٢١ ـ كلام علي عليه السلام.

٢٢ ـ الملاحم، وقد ذكره النجاشي في فهرسه.

قال عبد الزهراء الخطيب في كتابه «مصادر نهج البلاغة وأسانيده» (وهو يعتمد كتاب «المراجعات الريحانية» للإمام كاشف الغطاء مصدراً له):

إن «هذه الكتب ـ وهو يشير إلى الخمسة المذكورة آنفاً ـ كلها مجموعة من كلام علي عليه السلام، ألّفها الشيخ عبد العزيز يحيى الجلودي البصري المتوفى سنة (٣٣٢هـ)، وهو من أكابر علماء الإمامية، والرواة للآثار والسير، عدد له علماء الرجال ما ينيف على مائتي كتاب بل ما يقرب من ثلاثمائة كتاب كلها من عجائب الكتب. منها أربعون كتاباً فيما يتعلق بخصوص أمير المؤمنين عليه السلام في غزواته مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وحروبه من الجمل وصفين والغارات والحكمين، وبني ناجية، وما نزل في الخمسة، وتزويج فاطمة، ومن أحبه ومن أبغضه، ومن سبّه من الخلفاء، وكتاب التفسير عنه، وما نزل في القرآن في خصوصه، وكتاب شعره وكتاب خطبه وخلافته وعمّاله وولاته، والشورى وما كان بينه وبين عثمان،

وقضائه، ورسائله، ومن روى عنه من الصحابة، وكتاب شيعته، ومن مال بعده.

أفرد لكل هذه المذكورات كتاباً، ثم على مثل هذا ألّف في كل واحد من أهل البيت كتاباً.. وله عشرات من الكتب تتعلق بعبد الله بن عباس.. ثم بقية كتبه في سائر العلوم وأحوال سائر الأمم عامة والعرب خاصة، والشعراء على الأخص.

بعد تلك الجولة مع الكتب المؤلفة في خطب واحاديث أمير المؤمنين علي عليه السلام قبل جمع «نهج البلاغة»، بل قل قبل ولادة الشريف الرضي، وهي بعض من كل إذ لا شك أن ثمة غيرها قد أُلِّفت ولكن عوادي الزمن لم تحفظها لنا مثلما لم تحفظ كثيراً مما ذكرنا عناوينها. وثمة الكتب التي أُلِّفت بعد صدور «نهج البلاغة» للرضي، ولكنها كانت مستقياتها في كثير منها غير نهج البلاغة، وغير الشريف الرضي.

أقول.. بعد تلك الجولة: ألا يكفي ذلك دليلاً على أن دور الشريف الرضي كان دور الجامع فحَسْب لمحتويات «نهج البلاغة»؟

وإن تلك المحتويات هي من كلام الإمام علي عليه السلام بقضها وقضيضها ومن ألفها إلى يائها؟وأخيراً لا بد لي أن أتساءل بما تساءل به عبد الله حسين في كتابه (مصادر نهج البلاغة):

«أين تلك المؤلفات الموضوعة في خطب الإمام علي وكلامه؟ وأين ذهبت الأربعمائة من كلماته؟ أليس في كل هذا ما يؤكد أن ما اختاره الرضي في «نهج البلاغة» هو بعض ما كان

مدوناً ومحفوظاً ومشهوراً بين الناس؟ أليس هذا ما يدفع أولئك القائلين بأن ما في «النهج» موضوع ومنحول على لسان الإمام علي؟».

ثم ماذا نقول عن أقوال الأُدباء والمفكرين والفلاسفة في «نهج البلاغة» وفي كونه من كلام علي عليه السلام؟ هل نضع هؤلاء كلهم في «خانة» الخطأ؟

لنقرأ أقوالهم عسى ان تكون ـ ليس رداً على المشككين ـ بل شمساً تضيء لمن يريد أن يستضيء بنور الحقيقة، وتحرق من يصر على «تعصيب» عينيه بخرقة سوداء. ولأهمية تلك الأقوال نضعها تحت عنوان مستقل هو:

أقوال المنصفين في «نهج البلاغة»:

ـ قال ابن أبي الحديد: «إن سطراً واحداً من «نهج البلاغة» يساوي ألف سطر من كلام إبن نباتة، وهو الخطيب الفاضل الذي اتفق الناس على أنه واحد عصره في فنّه».

ـ وقال الدكتور زكي مبارك: «لا مفر من الإعتراف بأن «نهج البلاغة» له أصل وإلاّ فهو شاهد على أن الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ».

ـ أما خليل هنداوي فقال: «لا نكاد نرى كتاباً انفرد بقطعات مختلفة يجمعها سلك واحد من الشخصية الواحدة، والأسلوب الواحد كما نراه في «نهج البلاغة» لذا نقرر ونكرر أن «النهج» لا يمكن ان يكون إلا لشخص واحد، نفخ فيه نفساً واحداً».

ـ وقال محقق شرح النهج الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم في مقدمته: «ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن جامعه، سار في الناس ذكره، وتألق نجمه، أشأم وأعرق وأنجد وأتهم، وأعجب به حيث كان وتدارسوه في كل مكان، لما اشتمل عليه من اللفظ المنتقى، والمعنى المشرق، وما احتواه من جوامع الكلم، في أسلوب متساوق الأغراض محكم السبك، يعد في الذروة العليا من النثر العربي الرائع».

ـ وقال السيد الأميني في أعيان الشيعة: «وغير خفي أن من يريد اختيار أنفس الجواهر من الجواهر الكثيرة لا بد أن يكون جوهرياً حاذقاً، فكان الرضي باختياره أبلغ منه في كتاباته، كما قيل عن أبي تمام لما جمع «ديوان الحماسة» من منتخبات شعر العرب: إنه في انتخاباته أشعر منه في شعره».

وقد لاقى ديوان الحماسة من القبول عند الناس إقبالاً كثيراً وشرحه أعاظم العلماء، وكذلك «نهج البلاغة» من الشهرة والقبول ما هو أهله، وشرح بشروح كثيرة تنبو عن الإحصاء وكان مفخرة من أعاظم مفاخر العرب والإسلام».

ـ في حين قال الشيخ محمد عبده في مقدمة شرحه على «نهج البلاغة»:

«وقد جمع الكتاب ما يمكن ان يعرض للكاتب والخطيب أغراض الكلام، فيه الترغيب والتنفير والسياسات والجدليات، والحقوق، وأصول المدنية، وقواعد العدالة، والنصائح والمواعظ، فلا يطلب الطالب طلبته إلا ويرى فيها أفضلها، ولا تختلج فكرة إلا وجد فيها أكملها».

ـ وقال محمد حسن نائل المرصفي: و«نهج البلاغة» ذلك الكتاب الذي أقامه الله حجة واضحة، على أن علياً كان أحسن مثال حي لنور القرآن وحكمته، وعلمه وهدايته، وإعجازه وفصاحته.

اجتمع لعلي في هذا الكتاب ما لم يجتمع لكبار الحكماء، وأفذاذ الفلاسفة، ونوابغ الربانيين، من آيات الحكمة السابغة، وقواعد السياسة المستقيمة، ومن كل موعظة باهرة وحجة بالغة تشهد له بالفضل وحسن الأثر، وحسبنا ان نقول إنه الملتقى الفذ الذي التقى فيه جمال الحضارة، وجزالة البداوة، والمنزل المفرد الذي اختارته الحقيقة لنفسها منزلاً تطمئن فيه، وتأوي إليه بعد أن زلّت بها المنازل في كل لغة.

ـ وأوجز الشيخ ناصيف اليازجي في قوله فأبدع إذ قال:

أقرانك في العلم والأدب، وصناعة الإنشاء فعليك بحفظ القرآن و«نهج البلاغة».

ـ وقال الشيخ أبو الثناء شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي:

«نهج البلاغة» الكتاب المشهور الذي جمع فيه السيد المرتضى (كذا) الموسوي خطب الأمير كرّم الله وجهه وكتبه ومواعظه وحكمه وسمي «نهج البلاغة» كما أنه قد اشتمل على كلام يخيل أنه فوق كلام المخلوقين، دون كلام الخالق، عز وجل، قد اعتنق مرتبة الإعجاز، وابتدع أبكار الحقيقة والمجاز ولله در الناظم حيث يقول فيه:

ألا إن هـــذا الــــســـفـــر «نـــهـــج الـــبـــلاغـــة»
لـــمـــنـــتـــهـــج الـــعـــرفـــان مـــســـلـــكـــه جـــلـــي
عـــلـــى قـــمـــم مـــن آل حـــرب تـــرفـــعـــت
(كـــجـــلـــمـــود صـــخـــرٍ حـــطـّـه الـــســـيـــل مـــن عـــلِ)

ـ وثمة كلمة للأستاذ أمين نخلة في مقدمة كتابه «مائة كلمة من كلام الإمام علي، قال فيها:

«إذا شاء أحد أن يشفي صبابة قلبه من كلام الإمام فليقبل عليه في «النهج» من الدفة إلى الدفة وليتعلم المشي على ضوء «نهج البلاغة».

ـ وقال محمد أمين النووي في كتابه «جولات إسلامية»:

لقد كان علي في خطبه المتدفقة، يمثل بحراً خضمّاً من العلماء الربانيين وأسلوباً جديداً لم يكن إلاّ لسيد المرسلين، وطرق بحوثاً من التوحيد لم تكن تخضع في الخطابة إلا لمثله، فهي فلسفة سامية لم يعرفها الناس قبله، فدانت لبيانه، فسلست في منطقه وأدبه».

وقال: «حفظ علي القرآن كله، فوقف على أسراره، واختلط به لحمه ودمه، والقارىء يرى ذلك في «نهج البلاغة» ويلمس فيه مقدار استفادة علي من بيانه وحكمته».

«.. وهكذا نجد في كلام علي الدين والسياسة والأدب والحكمة، والوصف العجيب، والبيان الزاخر».

ـ أما عباس محمود العقاد فقال في كتابه «عبقرية الإمام»:

«في كتاب نهج البلاغة» فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد، وأصول التأليه وحكم التوحيد».

ـ وأما محمد محيي الدين عبد الحميد لم يستطع إلا أن يقول:

«(نهج البلاغة) هو ما اختاره الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو الكتاب الذي ضم بين دفتيه عيون البلاغة وفنونها، وتهيأت به للناظر فيه أسباب الفصاحة ودنا منه قطافها، إذ كان من كلام أفصح الخلق ـ بعد رسول الله ﷺ ـ منطقاً وأشدهم اقتداراً، وأبرعهم حجة، وأملكهم لغة يديرها كيف شاء الحكيم الذي تصدر الحكمة عن بيانه، والخطيب الذي ملأ القلب سحر بيانه، العالم الذي تهيأ له من خلاط الرسول، وكناية الوحي، والكفاح عن الدين بسيفه ولسانه منذ حداثته ما لم يتهيأ لأحدٍ سواه».

ـ ونعود إلى الدكتور جورج جرداق، إذ نقلنا رأيه في الإمام علي فننقل هنا، رأيه في نهج البلاغة وهو يقول[1]:

«نهج البلاغة آخذ من الفكر والخيال والعاطفة آيات تتصل بالذوق الفني الرفيع ما بقي الإنسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر؛ مترابط بآياته متساوق، متفجر بالحس المشبوب والإدراك

---

(١) انظر كتاب الفلسفة الإسلامية.

البعيد، متدفق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع؛ متآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليندمج التعبير بالمدلول، والشكل بالمعنى، إندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء، فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرء قبالة السيل إذ ينحدر والبحر إذ يتموج والريح إذ تطوف، أو قبالة الحدث الطبيعي الذي لا بد له أن يكون بالضرورة إلى غير كَوْن».

«بيان لو نطق بالتقريع لانقضّ على لسان العاصفة انقضاضاً! ولو هدد الفساد والمفسدين لتفجّر براكين لها أضواء وأصوات! ولو انبسط في منطق لخاطب العقول والمشاعر فأقفل كل باب على حجّة غير ما يتبسط فيه! ولو دعا إلى تأمّل لرافق فيك منشأ الحس وأصل التفكير، فساقك إلى ما يريده سوقاً، ووصلك بالكون وصلاً، ووحّد فيك القوى للإكتشاف توحيداً، وهو لو راعاك لأدركت حنان الأب ومنطق الأبوة وصدق الوفاء الإنساني وحرارة المحبة التي تبدأ ولا تنتهي!

أما إذا تحدث إليك عن بهاء الوجود وجمالات الخلق وكمالات الكون، فإنما يكتب على قلبك بمداد من نجوم السماء!».

«أحس علي إحساساً مباشراً عميقا بين الكائنات روابط لا تزول إلا بزوال هذه الكائنات، وأن كل ما ينقض هذه الروابط ينقض معنى الوجود ذاته».

«بيان هو بلاغة من البلاغة، وتنزيل من التنزيل، بيان اتصل

بأسباب البيان العربي ما كان منه وما يكون، حتى قال أحدهم في صاحبه إن كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق».

ـ وأكثر إنصافاً قول المستشرق الفرنسي هنري كوربال في «النهج»، فإذا كان جورج جرداق، وهو مسيحي، قال ما قال في «النهج» فإنه عربي تربطه بالإمام عليه السلام صلة الإنتماء القومي ولكن هنري كوربال لم يكن عربياً ولم تربطه بالإمام علي أية رابطة سوى نظرته الموضوعية المنصفة إلى ما ضمّه «النهج» من روائع خلّدها التاريخ، لنقرأ قول هذا الرجل المنصف هنري كوربال:

«وتأتي أهمية هذا الكتاب (أي النهج) بالدرجة الأولى؛ بعد القرآن وأحاديث النبي، ليس بالنسبة للحياة الدينية في التشيع عموماً وحسب، بل بالنسبة لما في التشيع من فكر فلسفي، ويمكن اعتبار نهج البلاغة منهلاً من المناهل التي استقى منها المفكرون الشيعة.. وإنك لتشعر بتأثير هذا الكتاب بصورة جمّة من الترابط المنطقي في الكلام؛ ومن استنتاج النتائج السليمة؛ وخلق بعض المصطلحات التقنية العربية التي أدخلت على اللغة الأدبية والفلسفية فأضفت عليها غنى وطلاوة، وذلك أنها نشأت مستقلة عن تعريب النصوص اليونانية».

٤ ـ التعريض بالصحابة:

إن رابع عكازة تعكز المشككون عليها بنسبة ما في «نهج البلاغة» إلى الإمام علي عليه السلام هي «التعريض بالصحابة»؛ فقد وقفنا على قول محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته على «النهج»

إذ قال: «إن في الكتاب من التعريض بصحابة رسول الله ﷺ ما لا يسلم أن يصح صدوره عن مثل الإمام علي..». اهـ.

قبل الرد على محمد محيي الدين عبد الحميد ومن تعكز على مثل عكازته يحسن بنا أن نتعرف على «الصحبة» لغة واصطلاحاً بشيء من الإيجاز؛ فالصحبة لغة: هي المعاشرة. وتطلق على المعاشرة في الزمن القليل والكثير، ولذلك قيل صحبت فلاناً حولاً وشهراً ويوماً وساعة، فيوقع إسم القليل على ما يقع منها كثير، وتقع بين المؤمن والكافر، كما تقع بين المؤمن والمؤمن، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾[1]. وقال تعالى مخاطباً مشركي قريش: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾[2]. وقال تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾[3].

وقال ﷺ وقد أُشير عليه بقتل عبد الله بن أُبي رأس المنافقين؛ «بل نحن صحبته، ونترفق به ما صحبنا ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

أما اصطلاحاً فهي: «إن الصحابي من رأى رسول الله ﷺ وقد أدرك الحلم فأسلم، وعقل أمر الدين ورضيه وصحبه ولو ساعة من النهار».

وطبيعي أن من صحابة رسول الله ﷺ لم يكونوا على درجة

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٧.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٤٦.

واحدة من الإدراك المعرفي، بل حتى من الإخلاص والإيمان؛ ففيهم من بقي على صلته الروحية والإيمانية بالرسول العظيم فكان مثالاً في القول والعمل، في السلم والحرب وفي الرقة والشدة، وفيهم من نكص عن قيم الدعوة المحمدية وأدار وجهه عنها لينشغل بمغريات الدنيا، وهذا الفريق ما تحدث عنه البخاري في صحيحه؛ إذ روى عن إبن مسعود: قال النبي ﷺ: أنا فرطكم على الحوض ليرفعنَّ إليّ رجال منكم حتى إذا هويت لأناولهم، إختلجوا دوني، فأقول: ربي أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك «وفي رواية سهل بن سعد.. فأقول سحقاً لمن بدّل بعدي».

وقد نزلت في ذلك الفريق آيات كريمات تصفهم بأنهم: ﴿ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾[1]. و﴿ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. و﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾[3].

وثمة آيات كثيرة عرّضت ببعض من صحبوا رسول الله ﷺ في حلّه وترحاله، وقد أفرد ـ جل وعلا ـ لهم سورة أسماها: «المنافقين».

وإذا كانت ثمة إشارات تعريضية ببعض الصحابة في «نهج

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ٩٥ ـ ٩٦.

البلاغة»، فالقرآن الكريم ـ كما مر بنا ـ قد عرّض بهم وهو سبق «النهج»، فضلاً عن أن أصحاب الصحاح والأسانيد المعتبرة قد نقلوا لنا كثيراً من ذلك التعريض؛ فالإمام ليس وحده من عرض بالمنافقين من الصحابة، فما جاء في «النهج» إذن، (يصح صدوره عن مثل الإمام علي) بعكس ما تصور محمد محيي الدين عبد الحميد وغيره من المشككين، لأن أصحاب رسول الله ﷺ ـ كما بينا ـ ليسوا على درجة واحدة من الإيمان والإخلاص، والصحابة أنفسهم تلاعنوا وتسابوا وتناقدوا فيما بينهم، وهذا ليس بالأمر الغريب، لأن مشاربهم مختلفة ودخولهم في الإسلام لم يكن ـ أصلاً ـ متفقاً تمام الإتفاق في الهدف والمرمى، فضلاً عن أن لكل إنسان رؤيته في تفاصيل الحياة الفكرية ـ خاصة ـ لذلك فإن النقد والطعن واللعن، بل حتى التكفير لم يكن هدفه نيل طرف من طرف آخر لغرض النيل فحسب، بل بسبب اختلاف النظرة إلى مفردات الحياة ودرجة الإرتفاع إلى مستوى المتغيرات الجديدة. والدعوة المحمدية ليست بالمتغير الجديد السهل على مجتمع كان غارقاً في جهله العقائدي وغافياً غفوة عميقة على معتقداته حتى جاء الإسلام فأحدث خضّة عنيفة في ذلك المجتمع فاستوعب فريق تلك القيم الجديدة بعمق إيماني واضح وتأرجح فريق آخر فجارى المتغيرات الجديدة تلك للحفاظ على مركزه الإجتماعي، وهذا ما يحصل في كل زمان ومكان.

وإلا ماذا نقول عن طلحة والزبير ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وغيرهم قبلهم وبعدهم هل يتساوون في درجة الإيمان مع أصحاب رسول الله ﷺ؟ أمثال بلال الحبشي وسلمان

المحمدي وعمار بن ياسر وعلي بن أبي طالب وغيرهم من الصحابة «النظاف» من تلوث أفكار الجاهلية الأولى؟

فالصحابة «قوم من الناس لهم ما للناس وعليهم ما عليهم».

فهل يقف الإمام علي عليه السلام - وهو المسلم الأول والمؤمن الأول والمجاهد الأول والمدافع الأول عن قيم الإسلام قولاً وعملاً بشواهد تاريخية لا تُرَد - أقول.. هل يقف مثل ذلك الرجل مكتوف اليدين حيال ما يرى من افتئات على الإسلام وحرف مبادئه ومحاولة إفراغه من محتواه من قبل أُولئك الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زمناً قلّ أو كثر فسمّوا بـ «الصحابة»؟

إن التاريخ حفظ لنا، وما يزال يسجل شواهد عن أن كثيراً ممن فجروا الثورات وأحدثوا الإنقلابات السياسية في هذا القطر أو ذاك وفي هذا العصر أو غيره، كانوا في البداية (أصحاباً) تربطهم «صحبة» الوسيلة والغاية، إلا أن عقدهم سرعان ما ينفرط بعد تلك الثورات والإنقلابات فتبدأ السقوطات على الطريق وتبدأ التصفيات الجسدية والسياسية والفكرية عموماً فيما بينهم، فماذا نسمي ذلك؟

إنه قانون الحياة الطبيعي لأن الناس كلهم ليسوا سواء في النظر والرأي والمشرب والإنحدار الطبقي والنَسَبي، وعند انخراطهم في بوتقة الثورة أو الإنقلاب نراهم يختلفون حول هذه المسألة أو تلك فيتساقطون على الطريق، لذلك قيل في المصطلح السياسي «الثورة تأكل أبناءها».

فإذا ما عرفنا ذلك فإنه سيتوضح لنا، بيسر، أن صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - وهم ليسوا على درجة واحدة من الوعي والإدراك

والاستيعاب ـ لا بد ـ والأمر كذلك ـ أن يختلفوا فيما بينهم، على هذه المسألة أو تلك، وإذا ما علمنا أن ثورة الإسلام تفوق أية ثورة قبلها وبعدها لما أحدثته من انقلاب جذري في الكم والكيف، أدركنا فوراً أن السقوطات على الطريق أمر طبيعي أيضاً.

لذلك إن أي نقد أو «تعريض»، كما يسمونه، لأولئك الذين لم يستطيعوا مواجهة معطيات الثورة، أمر طبيعي كذلك.

وإذا ما عدنا إلى «نهج البلاغة» نجد أن «جميّع التعريض والسباب ـ على حد تعبيرهم ـ ما هو إلا نقد بنّاء، ووصف للأعمال، بلغة مهذبة، وألفاظ متزنة لم يخرج بها عن حق، ولم يدخل فيها بباطل، ونظرة واحدة في ثنايا الكتاب تغني عن سرد الشواهد، وتسطير الأدلة».

وإذا ما وجد في ثنايا «النهج» ما يسمونه «التعريض»، وهو نقد كما بينا، فإن في «النهج» إشادة بالصحابة الذين ترسموا خطى رسول الله ﷺ وساروا على منهجه حتى النهاية، كقوله عليه السلام:

«لقد رأيت أصحاب محمد (فما أرى أحداً منكم يشبههم».

وقوله عليه السلام:

«وأوصيكم بأصحاب محمد الذين لم يحدثوا حدثاً ولم يأووا محدثاً ولم يمنعوا حقاً، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بهم ولعن المحدث منهم ومن غيرهم».

إذن فليس كل صحابي منزهاً من الذم، وليس كل صحابي

محرماً من الثلب، لذلك فلا مانع ـ أبداً ـ أن يذكر علي بالذم والثلب من يستحق ذلك منهم، خصوصاً أن بعضهم قد شهر السلاح بوجهه وأعلن الحرب عليه وكان يود قتله وسفك دمه مهما كانت الوسائل وبأي سبيل كان.

ومن هنا نرى أن كلمات الذم هذه لم تكن بالشكل الذي «لا يليق صدورها عن رجل مثل علي في دينه وعلمه وتقواه» كما يزعم محمود محمد شاكر، ولم تكن ما يجب إنكاره «تنزيهاً لعلي عن الهبوط إلى هذا المستوى»، كما يدعي الدكتور شفيع السيد.

فهل يُعد ذم الناكثين والقاسطين والطعن في المارقين والمنحرفين عملاً منافياً للتقوى، ومخالفاً لأحكام الدين؟

لذلك فلم يكن من المستبعد أن يذم علي هؤلاء وأشباههم، وليس في ورود مثل هذا الذم في كلامه ما يحمل على الشك في انتساب ذلك الكلام إليه، خصوصاً أنه قد أثنى على الصحابة الملتزمين الإثبات ثناءً جميلاً بلغ حد التأوّه والحنين على فراقهم وعلى حنينه عليهم لأنهم «تلوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الغرض فأقاموه، أحيوا السنّة وأماتوا البدعة.. الخ».

أيكفي ذلك دليلاً على أن ما في «النهج» للإمام علي عليه السلام، وإن عكازة «التعريض» منخورة لا بد أن تُسقط صاحبها يوماً ما فيدرك ما كان عليه من خطأ في الرأي وقصور في النظرة. وإذا كان ذلك لا يكفي نقولها بصريح العبارة: إن الإمام علياً عليه السلام كان يعني ما يقول، وما قاله كان من إفراز معاناته من حق اغتصبوه منه؛ فخطبته «الشقشقية» التي أغضبتهم وبسببها صاروا يشككون بـ

«النهج» لأنه كان مخزوناً من صدق المعاناة، وليس كما يدعي «صبري ابراهيم السيد» في كتابه «تحقيق وتوثيق نهج البلاغة» إذ يقول:

«ويبدو أن اشتداد التشيع لعلي أعمى شيعته عن حق السلف الصالح، فقالوا فيهم ما لايقبله عقل ولا يؤيده تاريخ. وظنوا أن مكانة علي لا ترتفع إلا بالحط من قيم هؤلاء حطاً لا يقبله منصف، ولا يرضى به على نفسه».

فما أودع خطبته «الشقشقية» إن هو إلا أمر في غاية المعقولية، ومن «إيداعات» الإمامعليه السلام نفسه وليس «دساً في كلام مثبوت الرواية معروف للقدماء حتى يجوز على العقول ويصعب فيه التمييز».

وأي رجل في موقع الإمام عليعليه السلام من حيث قرابته من الرسولصلى الله عليه وآله وإسهاماته في الدعوة الإسلامية وشجاعته وعلمه وحصوله على «وصية» رسول اللهصلى الله عليه وآله بأمر من الله، جلت قدرته، في (غدير خم) بأن يكون «ولي كل مؤمن ومؤمنة».. أقول.. أي رجل في موقعه وموقفه كان يفعل أكثر مما قاله الإمام عليعليه السلام في «الشقشقية» ولكن الإمام علياًعليه السلام خاف على الإسلام أن ينفرط عقده فتسقط حباته في أيدي الجاهلية الأولى فـ «سكت» على مضض، ولكن سكوته ذاك لا يعني رضاه، ولا يعني أنه ملزم أن لا يظهر ما يعتلج في صدره، لاسيما وهو إبن بيت النبوة والمسلم الأول والمؤمن الأول وصاحب الخندق الذي قال عنه الرسولصلى الله عليه وآله يومها: «خرج الإيمان كله إلى الكفر (أو الشرك) كله» وكان

الخلفاء الثلاثة شهوداً على موقفه ذاك، إذ لو أخذناه وحده شاهداً على أحقيته بالخلافة، لكفى، إذ كانت معركة الخندق فيصلاً حاسماً بين أن يكون الإسلام أو لا يكون، فثبتت أركانه واتسع بفضل سيف علي بن أبي طالب وشجاعته وغيرته على التكليف الإلهي. فأية غرابة في كلامهعليه السلام في خطبته الشقشقية؟ أليست هي تشخيص لواقع حصل؟ ألم يحصل ذلك في بيعة السقيفة والرسولصلى الله عليه وآله مسجى في فراشه وعليعليه السلام إلى جانبه وحده؟ أكثير على الإمام عليعليه السلام أن يقول: «وإنه (أي أبو بكر) ليعلم أن محلي منها (أي من الخلافة) محل القطب من الرحى. ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير»؟

ألا يدل ذلك على أمرٍ (قد بُيِّت في ليل) مما دعا الإمام أن يقول:

.. فيا عجباً بينا هو (أبو بكر) يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر (عمر بن الخطاب) بعد وفاته لشد ما تشطرا ضرعيها فصيَّراها في حوزة خشناء، يغلظ كلامها ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحّم فمني الناس لعمر الله، بخبط وشِماسٍ وتلون واعتراض».

ألم تكن تلك الصورة فوتوغرافيا لمسلسل تظهر خطوطه فيما بعد، بوضوح إنه تآمر ليس على الإمام عليعليه السلام فحسب، بل على الإسلام برمته لحرفه عن نقائه وصفائه وصدقه وجذره الإلهي.

ودليلنا الأول: ما حصل في (يوم السقيفة).

ودليلنا الثاني: ما أوصى الأول للثاني.

ودليلنا الثالث: دعوة عمر (رجال الشورى) وعهده إليهم باختيار الخليفة بعده.

وقد عرف الإمام هذا (المقلب) بثاقب بصيرته فصوره بكلمات قصار إذ قال:

«فصغى رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هن وهن».

وكان الإمام عليه السلام يقصد في كلامه كلاً من سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن أبي بكر وعثمان، الذي قال فيه: «إلى أن قام ثالث القوم، نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أمية، يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بِطنته».

ودليلنا الرابع: ما أسفرت عنه الأحداث بعد مقتل عثمان إذ كشف (بنو أمية) عن أوراقهم، وكان ما كان في حرب الجمل وصفين حتى مقتل الإمام عليه السلام فإذا كانت تلك المعاني التي وردت في الشقشقية «لا تتفق وسيرة علي مع الخلفاء، ولا تتلاءم مع ما أثر عنه من أقوال» كما يقول السباعي بيومي في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي».

فنحن نقول: إن ما جاء في الشقشقية، شيء ـ وهو إفراز معاناة ـ والانعكاسات السلوكية للإمام عليه السلام على مجريات الأحداث ومنها علاقته بمن تولوا الخلافة شيء آخر، إذ أنه كان في ذلك

بعيد النظر يريد منه الحفاظ على قيم الإسلام ومعانيه وعدم انفراط حباته ـ كما قلنا سابقاً ـ ولا يعني الرضا عنهم وعن مسلسلهم كما يُصَور للبعض.

٥ ـ الوصي والوصاية:

مثلما أخذوا على (النهج) أنه عرّض بالصحابة فقد أخذوا عليه ورود مصطلح (الوصية والوصاية) وبنوا على ذلك رأيهم بأن محتواه كان منحولاً في نسبته إلى الإمامعليه السلام لأن ذلك المصطلح هو من المصطلحات التي عرفت بعد عهد الإمام عليعليه السلام.

إن هذا الإدعاء يفتقر إلى الدليل العلمي كسابقه لذلك سنرد على مطلقيه ـ كعادتنا ـ بالدليل القاطع والمقنع فنقول:

إن مصطلح (الوصي والوصاية) ضارب بجذوره في عهد التاريخ العربي قبل «نهج البلاغة» بقرون. وكتب التفسير أو الحديث أو التاريخ أو السير والأدب مليئة بذلك المصطلح.

جاء في صحيح البخاري ومسلم عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم قوله:

«ما حق امرىءٍ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلته إلا ووصيته مكتوبة عنده». مما جعل عمر يقول: «ما مرّت عليَّ ليلة منذ سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم قال ذلك إلا وعندي وصيتي».

وجاء في مشكاة الأنوار قولهصلى الله عليه وآله وسلم: «من مات بغير وصية مات ميتة جاهلية». وقولهصلى الله عليه وآله وسلم: «من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقصاً في مروءته وعقله».

وجاء في مستدرك الحاكم: إن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام:

«أما إنك ستلقى بعدي جهداً».

قال علي:

- أفي سلامة ديني؟

قال:

- «في سلامة دينك».

ومما أخرجه ابن عساكر والمحب الطبري في (الرياض)..

قوله ﷺ لعلي:

- ضغائن في صدور قوم لا يبدونها إلا من بعدي..

ونقل لنا صاحب الغدير قوله ﷺ:

«يا علي إنك ستبتلى بعدي فلا تقاتلن».

صدق رسول الله ﷺ فقد عانى ما عاناه الإمام علي عليه السلام من خصومه بعد النبي الكريم ﷺ وهو لم يسلم من سهامهم حتى بعد موته وها هم يوجهون سهامهم إليه في معطى من معطياته الفكرية ألا وهو «نهج البلاغة» فيشككون في نسبته إليه لـ (إقحام) مصطلح (الوصية والوصاية) في طياته. وقد نسوا، أو تناسوا، أن ذلك المصطلح ولد في (مبدأ الدعوة الإسلامية قبل ظهوره وحين أنزل الله تعالى عليه ﷺ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1] فدعاهم إلى دار عمه أبي طالب وهم يومئذ أربعون رجلاً أو ينقصون، وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب. إذ قال ﷺ «يا بني

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟».

فأحجم القوم غير علي وكان أصغرهم إذ قام وقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ رسول الله برقبته وقال: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا..».

ونقل لنا محمد بن جرير الطبري في (الولاية) أن الرسول ﷺ قال: «إن الله تعالى أنزل إليّ ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]. وقد أمرني جبرئيل عن ربي أن أقول في هذا المشهد. وأُعلِم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام بعدي».

وقوله ﷺ: «يا معاشر الناس، هذا أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على من آمن بي».

وجاء في كفاية الطالب أنه ﷺ قال: «علي وعاء علمي ووصيي وبابي الذي أوتى منه».

وفي (إكمال كنز العمال) جاء: إن رسول الله ﷺ قال لفاطمة عليها السلام إن الله اطلع على أهل الأرض اطلاعة فاختار أباك فبعثه نبياً، ثم اطلع الثانية فاختار بعلك وأوصى إلي فاتخذته وصياً».

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

وفي فرائد السمطين جاء قولهﷺ: «أنا أفضل أنبياء الله ورسله، وعلي بن أبي طالب أفضل الأوصياء..» وقولهﷺ: «علي أخي ووزيري ووصيي وخليفتي في أمتي وولي كل مؤمن ومؤمنة».

ونقل لنا الخوارزمي في مناقبه عن ابن عباس قوله: «قال رسول اللهﷺ لأم سلمة: «هذا علي بن أبي طالب لحمه من لحمي ودمه من دمي، وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، يا أم سلمة هذا أمير المؤمنين وسيد المسلمين ووعاء علمي ووصيي وبابي الذي أوتى منه أخي في الدنيا والآخرة ومعي في المقام الأعلى..».

وعن سلمان المحمدي ـ كما جاء في (الولاية) لمحمد بن جرير الطبري ـ قال:

«قلت لرسول اللهﷺ: يا رسول الله إنه لم يكن نبي إلا وله وصي فمن وصيك؟ قال وصيي وخليفتي في أهلي وخير من أترك بعدي، مؤدي ديني ومنجز عداتي علي بن أبي طالب».

وعن المصدر نفسه قال النبيﷺ: «يا أنس يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد الغر المحجلين، وخاتم الوصيين، قال أنس قلت اللهم اجعله رجلاً من الأنصار، وكتمته، إذ جاء علي فقال: من هذا يا أنس؟ قلت: علي، فقام مستبشراً واعتنقه».

وجاء في ينابيع المودة للقندوزي الحنفي: قال رسول اللهﷺ:

«إن الله عز وجل عهد إلي في علي عهداً. . . إن علياً راية الهدى وإمام أوليائي ونور من طاعتي، وهو الكلمة التي ألزمها المتقين من أحبه أحبني، ومن أبغضه أبغضني فبشره بذلك، فجاء علي فبشرته بذلك، فقال: يا رسول الله أنا عبد الله وفي قبضته، فإن يعذبني فبذنبي وإن يتم الذي بشرني به فالله أولى به، قال ﷺ قلت: اللهم اجل قلبه، واجعله ربيعة الإيمان، فقال ربي عز وجل، قد فعلت به ذلك، ثم قال تعالى: إني مستخصه بالبلاء، فقلت: يا رب إنه أخي ووصيي، قال تعالى: إنه شيء قد سبق إنه مبتلى ومبتلى به».

وعن أحمد بن حنبل في مسنده: قال أنس بن مالك: قلنا لسلمان: سل النبي ﷺ عن وصيه فقال سلمان: يا رسول الله مَن وصيُّك؟ فقال: «يا سلمان مَن وصي موسى؟» فقال: يوشع بن نون، قال ﷺ: «وصيي ووارثي يقضي ديني، وينجز موعدي علي ابن أبي طالب».

وذكر الخوارزمي حديثاً طويلاً روته أم سلمة جاء في آخره: «إن الله اختار من كل أمة نبياً واختار لكل نبي وصياً فأنا نبي هذه الأمة وعلي وصيي في عترتي وأهل بيتي وأمتي من بعدي».

وفي ينابيع المودة عن أبي الطفيل عامر بن وائلة وهو آخر من مات من الصحابة قال: قال رسول ﷺ: «يا علي أنت وصيي حربك حربي وسلمك سلمي. .».

وفي كتاب مودة القربى للهمداني: «عن خالد بن معدان رفعه: «إن مَن أحب أن يمسي في رحمة الله فلا يدخل قلبه شك

بأن ذريتي أفضل الذريات، ووصيي أفضل الأوصياء».

وفي المحاسن والمساوىء للبيهقي: إن النبي ﷺ قال:

«هبط عليّ جبرئيل عليه السلام يوم حنين فقال: يا محمد إن ربك تبارك وتعالى يقرئك السلام وقال: إدفع هذه الأترجة إلى ابن عمك ووصيك علي بن أبي طالب عليه السلام فدفعتها إليه، فوضعتها في كفه، فانفلقت نصفين فخرج منها رق أبيض مكتوب فيه بالنور: من الطالب الغالب إلى علي بن أبي طالب».

وجاء في المنتقى من تاريخ بغداد لابن الحداد الحنفي: في الحديث ينادي منادٍ (أي يوم القيامة) هذا علي بن أبي طالب وصي رسول رب العالمين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين.. الحديث).

وسجل لنا نصر بن مزاحم في كتابه (صفين) شعراً للإمام علي وردت فيه كلمة (الوصي)، قال عليه السلام:

يا عجباً لقد سمعت نكرا
كذباً على الله يشيب الشعرا
يسترق السمع ويغشي البصرا
ما كان يرضى أحمداً لو خبرا
أن يقرنوا وصيه والأبترا

ويريد بالأبتر: عمرو بن العاص، إذ نزلت في أبيه الآية: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾[1].

---

(١) سورة الكوثر، الآية: ٣.

أما الخوارزمي فنقل في مناقبه قوله ﷺ: «أنا أخو رسول الله ووصيه».

وخطب الإمام [illegible]ن عليه السلام (كما في مستدرك الحاكم) فقال: (أنا ابن النبي وأنا ابن الوصي).

أما الإمام الحسين عليه السلام فقد قال في خطبته يوم عاشوراء:

«أما بعد فانسبوني فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها فانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم ﷺ وابن وصيه، وابن عمه، وأول المؤمنين بالله..؟ الخطبة».

كثيرة هي الأحاديث التي وردت فيها كلمة (الوصية والوصي)، ونحن إذا اقتصرنا على ما ذكرنا من أحاديث فلأنني أتوخى المرور بالشواهد والأدلة لئلا أطيل على القارىء الكريم، وغير الأحاديث ثمة آيات قرآنية كثيرة وردت فيها تلك الكلمة (الوصية) يمكن الرجوع إليها.

أما الشعر العربي، قبل ظهور «نهج البلاغة» فكان هو الآخر قد حمل لنا تلك الكلمة يحسن بنا أن نلم بشيء منه:

قال عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

ومنا علي ذاك صاحب خيبرٍ
وصاحب بدرٍ يوم سالت كتائبه
وصي النبي المصطفى وابن عمه
فمن ذا يدانيه ومن ذا يقاربه

وقال عبد الرحمن بن جعيل:

لعمري لقد بايعتم ذا حفيظةٍ
على الدين معروف العفاف موفقا

علياً وصي المصطفى وابن عمه
وأول من صلى أخا الدين والتقى

ومن البدريين الهيثم بن التيهان إذ قال:

قل للزبير وقل لطلحة إننا نحن الذين شعارنا الأنصار
نحن الذين رأت قريش فعلنا يوم القليب أولئك الكفار
كنا شعار نبينا ودثاره يفديه منا الروح والأبصار
إن الوصي إمامنا وولينا برح الخفاء وباحت الأسرار

وخرج يوم الجمل غلام من بني ضبة شاب معلم من عسكر عائشة وهو يقول:

نحن بني ضبة أعداء علي ذاك الذي يعرف قدماً بالوصي
وفارس الخيل على عهد النبي ما أنا عن فضل علي بالعمي

وقال حجر بن عدي الكندي في ذلك اليوم أيضاً:

يا ربنا سلم لنا عليا سلم لنا المبارك المرضيا
المؤمن الموحد التقيا لا خطل الرأي ولا غويا
بل هادياً موفقاً مهديا ثم ارتضاه بعده وصيا

أما خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وكان بدرياً فقد قال يوم الجمل:

يا وصي النبي قد أجلت الحر ب الأعادي وسارت الأظعانُ
واستقامت لك الأمور من الشا م وفي الشام يظهر الإذعانُ
حسبهم ما رأوا وحسبك منا هكذا حيث كنا وكانوا

وأما كتب التاريخ فقد نقلت لنا في طياتها مصطلح (الوصي والوصية) هي الأخرى يجدر بنا الوقوف عندها بمرور سريع:

قال ابن واضح في تاريخه: «ومن جملة احتجاج الخوارج على أمير المؤمنين عليه السلام أنه ضيع الوصية فكان من جوابه عليه السلام: «أما أقوالكم أني كنت وصياً فضيعت الوصية فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] أفرأيتم هذا البيت لو لم يحج إليه أحد كان البيت كفر؟ إن هذا البيت لو تركه من استطاع إليه سبيلا كفر وأنتم كفرتم بترككم إياي لا أنا بتركي لكم..».

وقال واضح أيضاً: «وقال مالك بن الحارث الأشتر لما بويع أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيها الناس هذا وصي الأوصياء ووارث علم الأنبياء، العظيم البلاء الحسن المضاء، الذي شهد له كتاب الله بالإيمان، ورسوله بجنة الرضوان، من كملت فيه الفضائل، ولم يشك في سابقته وعلمه وفضله الأواخر ولا الأوائل».

أما أبو جعفر الإسكافي المعتزلي فقال في (نقض العثمانية):

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

«وقال عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

وإن ولـي الأمـر بـعـد مـحـمـدٍ علي، وفي كل المواطن صاحبه
وصـي رسـول الله حـقـاً وصـنـوه وأول من صلى ومن لان جانبه

ونقل لنا الخوارزمي في مناقبه كتاب عمرو بن العاص إلى معاوية قبل أن يتفقا جاء فيه:

«فأما ما دعوتني إليه من خلع ربقة الإسلام من عنقي، والتهور في الضلالة معك، وإعانتي إياك على الباطل، واختراط السيف في وجه علي وهو أخو رسول الله ووصيه ووارثه، وقاضي دينه ومنجز وعده وزوج ابنته».

وأما المسعودي، في مروج الذهب، فقد نقل لنا كتاب محمد بن أبي بكر إلى معاوية، وإليك ما يتعلق بالوصية قوله: «فكيف ـ لك الويل ـ تعدل نفسك بعلي وهو وارث رسول الله ووصيه».

ومما نقلت لنا المصادر الموثوق بها أقوال بعض المشاهير ممن تأخر عن عصر النبوة والخلافة الراشدية وقد ورد فيها مصطلح الوصية والوصاية.

قال الكميت بن زيد الأسدي في الهاشميات:

والوصي الذي أمال التجوبي بـه عـرش أمـة لا تـهـدام
كان أهل العفاف والمجد والخير ونـقـض الأمـور والإبـرام
والوصي الولي والفارس المعلم تحت العجاج غير الكهام
ووصي الوصي ذي الخطة الفصل ومردي الخصوم يوم الخصام

وقال قيس بن الرقيات:

نحن منا النبي أحمد والصد   يق منا النقي والحكماء
وعلي وجعفر ذو الجناحين   هناك (الوصي) والشهداء

وقال كثير لما حبس عبد الله بن الزبير محمد ابن الحنفية:

تخبر من لاقيت أنك عائذ
بل العائذ المحبوس في سجن عارم
وصي النبي المصطفى وابن عمه
وفكاك أعناق وقاضي مغارم

وقال شارح الهاشميات محمود محمد الرافعي عن البيت الثاني:

«وأراد ابن وصي النبي، والعرب تقيم المضاف إليه في الباب مقام المضاف..».

ولكن في تذكرة الأمة روي البيت هكذا:

سمي نبي الله وابن وصيه   وفكاك أغلال وقاضي مغارم

فانتفت الحاجة إلى تخريج شارح الهاشميات.

وقال السيد إسماعيل بن محمد الحميري في قصيدته المذهبة التي شرحها السيد المرتضى:

وأن قلبي حين يذكر أحمداً   ووصي أحمد نيط من ذي مخلب

أما دعبل الخزاعي ـ كما جاء في معجم الأدباء ـ فقال في رثاء الحسين عليه السلام:

رأس ابن بنت محمد ووصيه   يا للرجال على قناة يُرفَع

وأما الكتب التي أُلفت في الوصية في القرون الأولى والصدر الأول قبل القرن الرابع ـ أي قبل صدور «نهج البلاغة» ـ فكثيرة نذكر منها ما صدر في القرنين الأول والثاني:

١ ـ كتاب الوصية لهشام بن الحكم المشهور.

٢ ـ الوصية للحسين بن سعيد الأهوازي.

٣ ـ الوصية للحكم بن مسكين المكفوف.

٤ ـ الوصية لعلي بن المغيرة.

٥ ـ الوصية لعلي بن الحسن بن فضال.

٦ ـ الوصية لمحمد بن علي بن الفضل.

٧ ـ الوصية لإبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي.

أما ما صدر في القرن الثالث نذكر منها:

١ ـ الوصية ليحيى بن المستفاد.

٢ ـ الوصية لمحمد بن الصابوني.

٣ ـ الوصية لمحمد بن الحسن بن فروخ.

٤ ـ الوصية والإمامة لعلي بن الحسين المسعودي صاحب مروج الذهب.

٥ ـ الوصية لعلي بن رئاب.

٦ ـ الوصية لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي.

٧ ـ الوصايا لمحمد بن علي السلحفاتي المشهور.

ذلك غيض من فيض، ومن أراد الاتساع فليراجع كتاب مصادر نهج البلاغة وأسانيده للشيخ عبد الزهراء الحسيني الخطيب ١/ ١٣٩ ـ ١٧٩. فقد اعتمدناه في كثير من شواهدنا جزاه الله خيراً.

فهل مزقت تلك الشواهد الظلام الذي غطى على عيون الذين ادّعوا إن الرضي انفرد بذكر الوصية والوصاية؟ وهل أذابت الضباب الذي حال دونهم لرؤية الحقيقة وسط أشعة الشمس الساطعة؟

أرجو أن أكون قد أسهمت مع من أسهم، في إلقاء الضوء على واحدة من أهم تشكيكات المشككين في نسبة «نهج البلاغة» إلى الإمام علي عليه السلام. عسى أن يهتدي من يطلب الهداية ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1] صدق الله جلّت قدرته.

٦ ـ الإطناب والإيجار:

ومما دعاهم إلى التشكيك في نسبة ما في «نهج البلاغة» إلى الإمام علي عليه السلام كونه أطنب في بعض الخطب والكتب وأطال، كالقاصفة والأشباح وعهد مالك بما لم يكن مألوفاً في صدر الإسلام[2].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٢) أثر التشيع في الأدب العربي.

في الحقيقة إن طول الخطب وقصرها، أو الإطناب والإيجاز فيها لم يكن مقتصراً على عهد دون آخر، بل إن ذلك يتساوق مع المرحلة والحدث ومتطلباتهما؛ فكلما سخنت المرحلة وتشعب الحدث تطلب الأمر الارتفاع إلى مستواهما والتوفر على مفرداتهما والتوغل في أعماقهما والإحاطة بتفاصيلهما وإماطة اللثام عن مفاصلهما. وهذا يتطلب من القائد استقراء المرحلة والحدث ليستطيع، بالتالي، من وصف الحالة وطرح الحلول، ولا يكون ذلك إلا بالإطالة، أو الإطناب في الكلام، وهو مما تطلبه عصر الإمام علي عليه السلام لما فيه من سخونة استثنائية لم تشهدها العهود التي سبقته؛ فهو عليه السلام ـ على قصر فترته في قيادة الأمة الإسلامية ـ خاض ثلاث حروب ضارية هي: الجمل وصفّين والنهروان، وواجه أُناساً انقلبوا على تعاليم الإسلام المتمثلة بالقرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم، محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأُناساً أغرتهم الدنيا بزخرفها فنكصوا عن جادة الحق، وأُناساً تأرجحوا بين هؤلاء وأولئك.

فما الذي يفعله الإمام إزاء ذلك كله؟

أليس عليه غير التوجيه والإرشاد والنصح؟

أيكون ذلك بكلمات موجزات قصار؟

حتى القرآن الكريم لم تكن سوره على وتيرة واحدة من الأسلوب؛ فثمة السور القصار جداً، بل والآيات القصار جداً، وثمة السور الطوال، بل والآيات الطوال، كل ذلك لتنسجم مع المرحلة والحدث.

فالذين أنكروا على الإمام علي عليه السلام أن يكون صاحب «نهج البلاغة» لذلك السبب لم يتوفروا على عصره وما أحاطت به من أحداث وإن كانوا قد اعترفوا ـ مضطرين ـ بقبول ذلك بقولهم: «نحن لا نقول إن هذا القدر من الطول في الخطب غير مقبول عقلاً..»[1].

ولكي لا نترك موضوعنا بلا إسناد تاريخي ـ كما هو منهجنا في البحث دائماً ـ نقول: إن سمة «الطول» في الخطب كانت معروفة ومنتشرة في الجزيرة العربية قبل عهد الإمام علي عليه السلام؛ فقد روي أن قيس بن خارجة بن سنان خطب يوماً إلى الليل فما أعاد كلمة ولا معنى[2]. وكذلك فعل سحبان وائل عندما وجد أن الضرورة تقتضي الإفاضة في الكلام وهو في مجلس معاوية إذ خطب من انتهاء صلاة الظهر إلى حلول وقت العصر[3]، ولم يقل أحد أن ذلك مخالف للبلاغة أو خارج على أصول الكلام.

ومع إطنابه ذلك كان يوجز في الكلام غاية الإيجاز على ما تقتضيه الحال. وفي ذلك يقول الدكتور زكي مبارك[4]: «وسحبان وائل الذي عرف بالتطويل وأنه كان يخطب أحياناً نصف يوم، أثرت عنه الخطب القصيرة الموجزة، وذلك يدل على أن الفطرة كانت غالبة على ذلك العصر، وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئاً آخر غير مراعاة الظروف...

---

(١) الإمام علي: أحمد زكي صفوة.

(٢) البيان والتبيين.

(٣) شرح العيون في شرح رسالة ابن خلدون.

(٤) في كتابة النثر الفني.

إن مسألة الإيجاز والإطناب كانت تجري على مقتضى الحال، فكان الكاتب يوجز تارة ويطنب أخرى على وفق الظروف التي فيها رسالته، وكان من الخطباء من يطيل وكان منهم من يوجز، ولا يرجعون في ذلك إلى قاعدة غير المناسبات التي توجب الكلام، فتقضي مرة بالإطناب وتقضي حيناً بالإيجاز».

فالإمام علي عليه السلام فضلاً عن أنه عاش تلك الظروف وخالط خطباء ذلك العصر، فهو من قال فيه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه». وخاطبه مرة قائلاً: «أنت سيد الفصحاء وسيد البلغاء»، وهو من قال فيه ابن عباس: «ما رأيت ـ قط ـ أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام». وهو من خاطبه عمر: «لا أبقاني الله بأرض لست فيها يا أبا الحسن». كما قال:

«لولا علي لهلك عمر». ثم هو من قال عنه معاوية: «فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره».

فإذا كان الإمام علي عليه السلام كذلك في الفصاحة والبلاغة والذكاء فمن باب أولى أن يكون متمكناً من أدواته اللغوية تمكن الصيرفي من نقوده؛ فهو يطيل متى رأى أن الموقف يتطلب الإطالة ويقصر على وفق مقتضى الحال، وقد أنصف الدكتور زكي المبارك عندما قال:

«ورسائل علي بن أبي طالب، وخطبه ووصاياه، وعهوده إلى ولاته في «نهج البلاغة» تجري على هذا النمط؛ فهو يطيل عندما يكتب عهداً يبين فيه ما يجب على الحاكم في سياسة القطر الذي

يرعاه، ويوجز حين يكتب إلى بعض خواصه في شيء معين لا يقتضي التطويل»[1].

فتشكيكهم، إذن، في هذا الجانب حظه مثل حظه في الجوانب الأُخر لم يستقوا فيه إلا من سراب ولم يركبوا إلا ظهور الأرانب.

٧ ـ السجع:

والسجع عكازة أخرى تعكز عليها المشككون في نسبة ما في «نهج البلاغة» إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. فقال محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته على «النهج»: «إن فيه من السجع والتنسيق اللفظي، وآثار الصنعة ما لم يعهده عصر الإمام ولا عرفه، وإنما ذلك طرأ على العربية بعد العصر الجاهلي وصدر الإسلام وافتتن به أدباء العصر العباسي، والشريف الرضي جاء بعد ذلك على ما ألفوه فصنف الكتاب على نهجهم وطريقتهم» ومع اعترافه بأن «من عرف ابن أبي طالب حامي عرين الفصاحة وابن بجدتها لم يعسر عليه السليم». أقول مع ذلك فإنه ـ وفي مقدمته تلك ـ راح يبطن تشكيكه بكلمات ملفوفة إذ قال: «السجع إذا جاء من غير تصنع وتكلف، ولم تظهر سماجته، ولم يثقل استماعه، كان آية من آيات البلاغة، ودلائل الفصاحة، ومع ذلك فليس ما في الكتاب كله سجعاً وما فيه من السجع فهو مما لم تدع إليه الصنعة، ولا اقتضاه الكلف بالمحسنات، وأكثره مما يأتي عفواً

(١) المصدر السابق نفسه.

بلا كد خاطر، ولا تجشم هول، ومثله في عبارات عصره واقع، ومن عرف ابن أبي طالب كان حامي عرين الفصاحة وابن بجدتها لم يعسر عليه السليم».

أما أحمد أمين فقد شكك هو الآخر بنسبة ما في «النهج» إلى الإمام علي عليه السلام إذ قال في فجر الإسلام: «واستوجب هنا الشك أمور ما في بعضه من سجع منمق، وصناعة لفظية لا تعرف لذلك العصر كقوله: «ويعني الإمام عليه السلام»:

«أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير وأصلك الذي إليه تصير».

واعتمد في شكه هذا على «هوار» الذي سبق أن شك في نسبته إلى الله جل وعلا. إذ نقل عنه طه حسين في الأدب الجاهلي قوله: «إن ورود هذه الأخبار في شعر أُمية بن أبي الصلت مخالفة بعض المخالفة لما جاء في القرآن، دليل على صحة هذا الشعر من جهة، وعلى أن النبي قد استقى منه أخباره من جهة أخرى».

لنناقش هؤلاء عسى أن نتوصل نحن وإياهم إلى منبع الحقيقة الصافي فنرتوي منه الحق والعدل والإنصاف:

١ ـ يقول محمد محيي الدين عبد الحميد: «إن فيه من السجع والتنميق اللفظي وآثار الصنعة ما لم يعهده عصر الإمام ولا عرفه..».

إذا كان ما قرره محمد محيي الدين عبد الحميد صحيحاً

فماذا نسمي قول الرسول الكريم محمدﷺ: «إن الأعمار تفنى والأجسام تبلى، والأيام تطوى والليل والنهار يتطاردان تطارد البريد، يقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، وفي ذلك ـ عباد الله ـ ما يلهي عن الشهوات، ويرغب في الباقيات الصالحات»؟

وماذا نسمي قولهﷺ: «إن مع العز ذلاً، وإن مع الحياة موتاً، وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكل شيء حساباً، ولكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً، وإن لكل شيء رقيباً، وإنه لا بد لك من قرين يدفن معك هو حي وأنت ميت، فإذا كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ولا تُبعث إلا معه، ولا تُسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً فإنه إن صلح أنست به، وإن فسد لم تستوحش إلا منه وهو عملك».

وماذا نسمي قولهﷺ: «أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصِلوا الأرحام وصلّوا بالليل والنهار والناس نيام».

وماذا نسمي قولهﷺ: «إنما الحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى».

وقولهﷺ: «إرجعن مأزورات غير مأجورات».

وماذا نقول عن خطبة أبي بكر: «أستهدي الله بالهدى، وأعوذ به من الضلال والردى، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1].

وعن خطبته: «يا معشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا آويناكم

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٧.

في ظلالنا وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا، قلتم، وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد، وإن طال به الأمد».

وماذا نقول عن خطبة لعمر في الاستسقاء: «اللهم قد ضرع الصغير، ورقَّ الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى».

وماذا نقول عن خطبة لعثمان خطب بها الناس لما نقموا عليه ما نقموا: «إن لكل شيء آفة، وإن لكل نعمة عاهة، وفي هذا الدين عيابون ظنانون، يظهرون لكم ما تحبون، ويُسرّون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون».

وقبل ذلك؛ ماذا نقول عن خطبة قس بن ساعدة الإيادي ومن الرواة لها رسول الله ﷺ نفسه، ومنها[1]:

«أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء مخبراً وإن في الأرض لعبراً.. الخ».

أليس تلك الأقوال سجعاً ظاهراً وواضحاً؟ ثم أليست هي في عصر الإمام؟ وإذا انتهينا من تلك الأقوال وعدنا إلى منبع الإسلام الأول ـ القرآن الكريم ـ نجد فيه السجع يشكل السمة الأكثر ظهوراً:

---

(١) النثر الفني ـ زكي مبارك.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[١].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ . .﴾[٢].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾[٣].

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[٤].

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾[٥].

إضافة إلى السور: الذاريات، الطور، النجم، الرحمن، الواقعة، . . وغيرها من السور الطوال.

فماذا يعني هذا؟ أليس يعني أن الإمام علياً عليه السلام هو امتداد لعصره والعصر الذي سبقه؟ إن ذلك التواصل أمر طبيعي ينسحب على كل مفردات الحياة، واللغة هي إحدى تلك المفردات، ثم أهو غريب عن شخصيةٍ مثل علي بن أبي طالب عليه السلام الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وغيره أنه إمام الفصحاء وسيد البلغاء أن نرث عنه هذا الإرث المتفرد في تدفقه العفوي الطبيعي، والمتفرد في بنائه

---

(١) سورة الإخلاص، الآيات: ١ ـ ٤.

(٢) سورة الفلق، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٣) سورة الناس، الآيات: ١ ـ ٦.

(٤) سورة الفجر، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٥) سورة الشرح، الآيتان: ١ ـ ٢.

المعماري المنسجم مع كل عصر في الشكل والموضوع؟ وأين هي آثار الصنعة في قوله عليه السلام:

«إن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم»؟

وقوله عليه السلام وهو يخوف فيها أهل النهروان: «فأنا نذير لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، على غير بينة من ربكم، ولا سلطان مبين معكم، قد طوحت بكم الدار، واحتبلكم المقدار»؟.

نحن نقيم الدنيا ونقعدها إذا ما قرأنا لأبي العلاء المعرّي لزومياته ونبري لشرحها والإشادة بها كتراث عربي (وهي كذلك لا شك) ولكننا نعُد تلك اللزومية المتدفقة بشكل عفوي، المتساوقة مع المفردات التي قبلها والتي بعدها تساوقاً لا تجعلك تحس بأي أثر للصنعة؛ إذ جعل «التقوى» دواء «القلوب» وبصر الأفئدة وشفاء الأجساد وصلاح الصدور وطهر الأنفس، وجلاء الأبصار وأمن الفزع وضياء الظلم.

هذه الوحدة الموضوعية العجيبة والوحدة العضوية المتماسكة والجرس الموسيقي الذي تبعثه لزومية الـ «كم» الجميلة المنبعثة من نفس تحترق لتضيء الطريق للآخرين، تبدأ بـ «التقوى» لتعدد لنا تأثيراتها ونتائجها على النفس البشرية والسلوك الاجتماعي، والنظرة الشمولية للحياة.

أقول.. إذا ما قرأنا ذلك لعلي بن أبي طالب عليه السلام نعُدّه من (آثار الصنعة)

لماذا يا قوم؟ أليست مفردات علي عليه السلام هي ذاتها المفردات العربية التي ورثناها من عصور ضاربة في عمق الزمن؟ ولكنها جاءت على لسانه بعفوية «بحيث تنسجم مع الناحية الصوتية فتجيء على اللسان لذيذة الوقع في الآذان، موافقة لحركات النفس، مطابقة للعاطفة التي أزجتها وللفكرة التي أملتها»[١].

أليس كذلك؟

قليلاً من التأني والإنصاف في إصدار الأحكام على معطيات رجل كان وما يزال وسيبقى معلماً مهماً، بل ومتفرداً، من معالم حضارتنا وإرثنا الأدبي.

٢ ـ يقول محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته تلك:

«وافتتن به (أي السجع) أدباء العصر العباسي، والشريف الرضي جاء من بعد ذلك على ما ألفوه فصنف الكتاب على نهجهم وطريقتهم» اهـ.

ومعنى هذا الكلام أن الشريف الرضي هو الذي «وضع» هذا السجع لينسجم مع «نهج» معاصريه.

لو ألقينا نظرة فاحصة ودقيقة ومنصفة على مؤلفات الشريف الرضي التي وصلتنا لوجدناها مختلفة عما في «نهج البلاغة» في

---

(١) تاريخ بغداد.

تركيباتها اللغوية وسياقها العام تمام الاختلاف؛ فالرجل له أسلوبه البحثي النابع من ثقافته اختارها هو لنفسه ومن تأصل في تركيبه الذهني. أما أسلوب النهج فليس فيه ذلك.

إن محتويات «النهج» بما فيها «السجع» كانت وليدة اللحظة والحدث والمعاناة واستشراف آفاق المستقبل، ولكنها كانت مترابطة متماسكة متساوقة مع بعضها، بحيث شكلت بمجموعها وحدة موضوعية واحدة، هي «الله والعالم والإنسان» هذا أولاً، وثانياً ـ وقد ألمحنا إليه فيما سبق ـ إن الشريف الرضي لو كان واضع ذلك السجع في طيات «نهج البلاغة» لأشار إليه، أو لأفرده ضمن مؤلف يضاف إلى مؤلفاته العديدة، ولو عرفنا أن الرضي يتمتع بالتزام أخلاقي وديني لأدركنا أنه «يحتاط أن ينسب ما لغيره لنفسه وما لنفسه لغيره نتيجة ذلك الالتزام. فضلاً عن إن جمل السجع تلك تتحدث عن شواهد تاريخية معروفة، كمخاطبة الخوارج بهدف تخويفهم وقد مر ذلك.

وقوله في كتاب إلى عبد الله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر: «فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً..».

وقوله لما أغار النعمان بن بشير الأنصاري على عين التمر: «منيت بمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت، لا أبا لكم، ما تنظرون بنصركم ربكم؟ أما دين يجمعكم؟ ولا حمية تحشمكم».

وكتطبيق عملي لما احتاط به الشريف الرضي في نقله قوله عليه السلام:

«العين وكاء»[1].

قال الرضي رحمه الله: وهذا من الاستعارات العجيبة.. ومن الناس من ينسب هذا الكلام إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام، وقد ذكر ذلك محمد بن يزيد المبرّد في كتاب «المقتضب» في باب اللفظ بالحروف، وفي الأظهر الأشهر أنه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد احتاط الرضي رحمه الله في نقل هذا الحديث في النهج فقال:

«فهذا القول في الأشهر الأظهر من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد رواه قوم لأمير المؤمنين (وذكر ذلك المبرد..».

لا أدري هل يكفي هذا لإثبات أن الشريف الرضي لم يضف «السجع» ليتفق وسمات عصره ونقله نقلاً واثقاً عن لسان إمام الفصحاء وسيد البلغاء علي بن أبي طالب عليه السلام؟

فإذا كان لا يكفي فما ذنب من أراد أن يخرق سجف الظلام في طريق من تلفعوا به ولكنهم أخذوا يستجيرون به لئلاّ تحرق عيونهم أشعة الشمس.

٣ ـ وقال محمد محيي الدين عبد الحميد: «السجع إذا كان من غير تصنع وتكلف، ولم تظهر سماجته، ولم يثقل استماعه كان آية من آيات البلاغة، ودلائل الفصاحة..»

ماذا يعني بكلامه هذا؟

(١) بلاغة الإمام علي لأحمد الحوفي.

إن المتبادر إلى الذهن لأول وهلة يظن أن مراده، الإشارة بقول الإمام في هذا الفن (السجع) ولكن بعد التمحيص والتدبر يظهر الكلام على حقيقته وهو: إنه أراد به الغمز الخفي والاتهام المستور بأن هذا اللون من الكلام لم يكن ذا صلة بالإمام أولاً، وأنه يشوبه التصنع والتكلف والسماجة ثانياً. أما كونه ذا صلة بالإمام فهذا ما تحدثنا عنه في الفقرة (٢) السابقة، ونضيف أنه عليه السلام، خاطب أهل البصرة قائلاً:

«يا أشباه الرجال ولا رجال.. لوددت أني لم أركم وأعرفكم..» و«دارستكم الكتاب، وفاتحتكم المجاج، وعرفتكم ما أنكرتم، وسوغتكم ما مججتم، لو كان الأعمى يلحظ، والنائم يستيقظ»[1].

فهو شاهد تاريخي لا يقبل الجدال إنه من قول الإمام علي عليه السلام. أما كونه يشوبه التصنع والتكلف والسماجة، فهذا مما يمكن دحضه بشواهد من أقواله عليه السلام، كقوله عليه السلام:

«فليقبل امرؤ كرامة بقبولها، وليحذر قارعة قبل حلولها، ولينظر امرؤ في قصير أيامه، وقليل مقامه، في منزل حتى يستبدل به منزلاً، فليصنع لمتحوله، ومعارف منتقله، فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه، وتجنب من يرديه، وأصاب سبيل السلامة ببصر من يبصِّره، وطاعة هادٍ أمره، وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، وتقطع أسبابه، واستفتح التوبة، وأحاط الحوبة، فقد أقيم على الطريق وحُدي نهج السبيل».

---

(١) نهج البلاغة ٢/ ٢٦٣.

وقوله عليه السلام: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور، والقلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحةً للشبهات، واحتجاجاً بالبينات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلات، والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سواري اليقين، واختلف النجر، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمي المصدر، فالهدى خامل والعمى شامل..».

ولولا خوف الإطالة لاستشهدنا بالكثير من أقواله (المسجوعة التي جاءت عفو الخاطر ولكنها لم تكن ذا صلة بالسماجة والتصنع والتكلف. بل كانت آية من آيات البيان العربي ولوحات فنية تحكي مسيرة هذا الإنسان في حياته اللاحبة.

٤ ـ لقد سلم محمد محيي الدين عبد الحميد بأن الإمام علياً عليه السلام «حامي عرين الفصاحة». كأن الإمام علياً عليه السلام كان يحتاج لشهادة محمد محيي الدين بأنه (حامي عرين الفصاحة) وكأننا لم نعرف ذلك فتبرع ليدلنا عليه.

إن مثل هذا الأسلوب يبعد صاحبه عن قواعد المنهج العلمي البحت. ويضيع عليه الحقيقة النظيفة لأنه درب شائك لا يسلم صاحبه من العثرات في مطباته الكبيرة، وإلا من منا لا يعرف أن علي بن أبي طالب هو إمام الفصحاء، وسيد البلغاء، وقد نقل لنا التاريخ والروايات كثيراً من الشواهد والأدلة بأنه «حامي عرين الفصاحة» أما أن محمد محيي الدين يأتي في القرن العشرين فيسلّم بذلك تسليم المضطرين فهذا لا يسمن ولا يغني من جوع.

إن الشمس لا يحجبها غربال المشككين والغمازين واللمازين، وإذا حجبتها بعض الغيوم يوماً أو ساعة فإنها تبقى محتفظة بخواصها الفيزيائية والكيميائية، بل إنها بخاصيتها تلك تذيب الغيوم من حولها لتشرق بأشعتها الأرجوانية من جديد فتملأ الحياة حباً خلواً من الثقوب السود.

٥ ـ أما أحمد أمين فقد اعتمد رأي المستشرقين في بلاغة وفصاحة الإمام علي عليه السلام وأسلوبه في الكلام.

متى كان المستشرق يعرف ما في الدار أكثر من صاحبها؟ بل متى كان أكثر إخلاصاً في نقل الحقيقة عن أبناء قومنا؟ حتى الذين اعترفوا برجالاتنا وأشاروا إلى معطياتهم بشيء من الإنصاف لكنهم ليسوا بالبدلاء عنا في إقرار هذا الأمر أو ذاك، لأننا عشنا حضارتنا وتواصلنا معها جيلاً بعد جيل. ولكننا نبقى نردد «مغنية الحي لا تطرب» ولسان حالنا يقول:

فلو غوّرت في تاريخ شعري ... وأبصرت الحقيقة ما عميت
ولكني هجرت تراث قومي ... وأقصرت الطريق وقد عييت
فداهمني الغزاة بعقر داري ... فما نافحت عنها أو نهيت
لأني مذ خلقت خلقت خصماً ... لبعضي، بل تأكلني الشتيت
فلم «أشطف» ثيابي عبر طستي ... فحاطت بي من الدنيا طسوت
وصرت أذب عن أفكار غيري ... وعن أفكار قومي قد غويت
نصوصياً غدوت لكل قولٍ ... غريب، عن جنى قومي سهوت
كأني ما ورثت لهم تراثاً ... بِعَدِّ الرمل لكني نسيت

وصرت أغض طرفي عن تراثي ... ولكن عن تراثهمُ رويت
وثمري لا يقيت بأرض قومي ... ولكن لو أتى منهم يقيت
ومرّ طعامهم حلو مذاقاً ... وحلو طعام قومي «زقنبوت»
وإن أدعى لذبٍ عن تراثي ... أراوغ، إذ كأني ما دُعيت
ولكن لو دعاني الغرب يوماً ... أقول له: لإرثك قد فُديت
فذاك لي الرواء إذا ظميت ... ولي مأوًى يقيني أو مبيت
وذاك لي الدواء إذا اعتراني ... ذبول المحل قلت: به شُفيت
وأما إرثي الموروث أضحى ... لظًى لي، بل وفيه قد شويت
وقد نعتوه بالسلفي ظلماً ... وعنه بعيدة تلك النعوت
وقالوا: إنه إرث مقيت ... تقولب وهو في هذا مميت
وقالوا: لم يواكب عصر قومٍ ... تناهوا فيه، بل أضحى يميت
وما يدرون أني تهت إن لم ... أعب من ريِّه، بل ما حييت
وهم يدرون لكن أي بلوًى ... بأن يدروا وهم عنه سكوت[1]

ذلك هو حالنا في تقييم تراثنا، وإلا هل يحتاج رجل مثل الإمام علي عليه السلام إلى كبير عناء في إثبات مكانته في الحضارة الإسلامية؟ ودوره الكبير في بلورة الجوانب الفنية للغتنا العربية؟ وهو القائل:

«هل منا مناص أو خلاص، أو معاذ أو ملاذ، أو مزار، أو مجار». والقائل:

(١) الأبيات من قصيدة طويلة للمؤلف تعداد أبياتها ١٢١ بيتاً من ديوانه المخطوط ج٣.

«أين من جد واجتهد، وجمع واحتشد، وبنى فشيد، وفرش فمهّد، وزخرف فنجّد».

ألا يأخذك الجرس الموسيقي بسحره الخلاب إلى عوالم حالمة مع تلك الثنائيات

«مناص وخلاص، معاذ وملاذ، مزار ومحار» هي إلى الشعر أقرب منها إلى النثر، بل هي مترعة بالدفق الموسيقي المنساب بعذوبة وفراهة وعفوية.

٨ ـ دقة الوصف:

يقول محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمة تحقيق «نهج البلاغة»:

«إن فيه من دقة الوصف واستفراغ صفات الموصوف، وإحكام الفكرة، وبلوغ النهاية في التدقيق كما تراه في وصف الخفاش والطاووس والنملة والجرادة، وكل ذلك لم يلتفت إليه علماء الصدر الأول ولا أدباؤه ولا شعراؤه، وإنما عرفه العرب بعد تعريب كتب اليونان والفرس الأدبية والحكمية..».

إن الإنسان في كل عصر ومكان يصدر أحكامه على النابغين من ما هو فيه: فإذا رأى خارقية ما في إنسانٍ ما أنكر عليه لأنها تمخض استثنائي لم تستطع مداركه القاصرة من الوصول إلى استيعابها فيبدأ بإصدار أحكامه، التي يحسبها أدلة إنكارية قاطعة بلا عمقٍ في التأمل في شمولية الرؤية وأحياناً إنصاف في الحكم. والنابغ دائماً يكون هدفاً لذوي العقول القاصرة والنظرة الضيقة والتفكير المتحجر والأذهان المنغلقة على نفسها.

ولأن النابغ سابق زمانه،فمن الصعب أن يجد من يفهمه ويستوعب قدراته ومعطياته الفكرية، اللهم إلا القلة القليلة من الذين يقتربون منه في الخاصية تلك. وقلة هم أولئك النابغون في المجتمعات البشرية، إذ لا تزيد نسبتهم عن ١٪ إن لم تقل.

وهكذا كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام «استثناءً» في عصره وبقي استثناءً في كل العصور إلى يومنا هذا.

فليس غريباً ـ إذن ـ أن نقرأ لهذا الكاتب أو ذاك رأياً في نابغ وآخر ينكر عليه نبوغه لا لشيء إلا لكونه قاصراً في نظرته أو حاسداً إياه، أو مفترقاً عنه في المذهب أو العرق أو التفكير، أو هي مجتمعة كلها فيه. فتأتي أحكامه مبتسرة تفوح منها رائحة لم يألفها إلا هو.

لذلك نرى، «إن كثرة الشاكين في (النهج) لم يسلكوا طريقاً فنياً في التحليل، ولم يركنوا إلى مقياس علمي خلا العاطفة والأغراض، ولم يكونوا صيارفة كلام أحرار متجردين عن كل شيء»[١] وإلا متى كانت دقة التحليل وإجادة الوصف وقفاً على قوم دون قوم؟ أو ليس الشعر العربي مملوء بدقة الوصف واستكماله؟ ثم أليس لقرشي شهد تنزيل القرآن، وصحب أفصح العرب منذ نعومة أظفاره، وكتب له الوحي، وسمع ما يفجره الله تعالى على لسانه من ينابيع الحكمة، أليس لهذا القرشي ميزة عن سائر الناس؟[٢].

ثم أما كان يجب على أولئك الكتاب الذين استكثروا على

---

(١) تحت راية الحق.

(٢) مصادر نهج البلاغة وأسانيده.

الإمام علي﷣ دقة الوصف ـ مثلما استكثروا عليه أشياء كثيرة غيرها بلا وجه حق ـ أن يدرسوا شخصيته بكل جوانبها، وعند ذاك تكون أحكامهم متفقة وعظمة واستثنائية هذه الشخصية الفذة.

ثم إن علي بن أبي طالب كان يستعين بذاكرة قوية، وقدرة هائلة على اختزان صور الناس والطبيعة، وأخبار البشر، وأوصاف الأشياء. وكانت دقة ملاحظته تجعله محيطاً إحاطة مدهشة بسمات الشيء الباطنة قبل الظاهرة.

وبفعل ذلك كان وصفه يتغلغل إلى عمق الظاهرة، أو الصفة، كما يتسع ليربط الظاهرة بالأخرى، والصفة بالأخرى ليقدم رؤية شاملة، تضع الجزئي في موضعه الحقيقي، ضمن العام، وتضع البعض ضمن الكل، وبما أن أبلغ وصف هو ذلك الذي ينقل الصور البليغة للأشياء ويعكسها بأجمل تعبير، وأقوى إيماء، وأدق وصف، وأجلى تعبير، فإن سحر البيان الذي أوتيه علي بن أبي طالب كان يجعل من عملية الانعكاس الوصفي قطعاً فريدة من النصوص الوصفية التي تفخر بها العربية[١]. ولكن هذا الانعكاس الوصفي الفريد كان له رد فعل معاكس لا يساويه في المقدار البحثي العلمي المنهجي، بل ساواه في النكوص عن جادة الحق والتأمل المنصف، فكان ما جاء به محمد محيي الدين عبد الحميد وأحمد أمين في فجر الإسلام والدكتور شفيع السيد ومحمود محمد شاكر وغيرهم ممن أنكروا على الإمام علي﷣

---

(١) علي بن أبي طالب سلطة الحق ـ عزيز السيد جاسم.

هذا التفرد في التفكير والنظرة ودقة الوصف هو من رد الفعل ذاك.

إن ما كان يتمتع به الإمام علي عليه السلام من خارقية فائقة التصور جعلت منه «مبدعاً في ميادين الأساليب المتعددة، فهو يقدم النص الوصفي بالقدرة الرائعة، التي يقدم بها النص السياسي، أو الفقهي، والأخلاقي، ورغم أن وصف الأشياء يتصل اتصالاً دقيقاً بعملية انعكاس الأشياء نفسها في الذهن، فإن طبيعة النفس المرهفة والعقل النير تجعل من عملية الانعكاس إعادة خلق صوري للموصوف. فيصبح الموصوف (في الصورة البلاغية) يشبه الحقيقة الملموسة للشيء الموصوف ويتجاوزه بالجمالية الممنوحة إليه من داخل كلمات النص.

إن علي بن أبي طالب كان يستنطق الصفات واهباً إياها المقدرة على أن تستعرض نفسها بشفافية أكبر»[1]. تماماً كما يفعل المصور الفوتوغرافي عندما يريد التقاط صوره فهو يختار الجوانب الفنية للأشياء فتأتي صوره أكثر تأثيراً من الأصل المصور. وهنا يكون الاعتماد على قدرة هذا المصور الإبداعية في تحريك كاميرته واقتناص اللحظة والشكل وزاوية النظر فإذا كان مبدعاً حقاً جاءت صوره مترعة بدفق لوني ناطق بكل آيات الإبداع.

وعلي بن أبي طالب عليه السلام «تميز بقوة ملاحظة نادرة ثم بذاكرة واعية تخزن وتتسع، فتيسرت له من ذلك جميعاً عناصر قوية تغذي

---

(١) المصدر السابق نفسه.

فكره وتقوي خياله فتسهل عليه محاكمة الأشياء والمقارنة بين عناصرها لإثبات أرجحها وأفضلها للبقاء والتعميم»[١].

فليس مستغرباً ـ إذن ـ على مثل علي بن أبي طالب عليه السلام ـ إلا لدى قلة قليلة ـ أن يصف لنا ذلك الوصف الرائع لبعض الحيوان مما جعل أصحاب «الرأي. . .» يقفون مذهولين أزاء هذه الصورة، بل اللوحات الزيتية الرائعة التقنية فلم يجدوا لأنفسهم مفراً منها إلا الإنكار من كونها من بنات أفكار علي عليه السلام لأن عصره يفتقر إلى تلك القدرة الإبداعية. . ! وإن الجزيرة العربية ـ والمدينة ـ لم تدجن الطاووس ـ مثلاً ـ الذي وصفه الإمام علي عليه السلام فأبدع في وصفه على الرغم من أن ابن أبي الحديد قد أوضح لهم أن الإمام علياً عليه السلام لم يشاهد الطواويس في المدينة بل بالكوفة وكانت يومئذ تجبى لها ثمرات كل شيء، وتأتي إليه هدايا الملوك من الآفاق، ورؤية المسافدة مع الذكر والأنثى غير مستبعدة»[٢].

أقول على الرغم من ذلك ظلوا يشككون في نسبة هذا الوصف الرائع للإمام علي عليه السلام متذرعين بحجج لا تقوم على دليل علمي ومنطقي.

وهذا كله من الجهل بمقام أمير المؤمنين وفضله ومبلغه من العلم[٣]. ولكي لا نترك الكلام عارياً من شواهد من وصفه (نذكر

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) شرح النهج.

(٣) مدارك نهج البلاغة للشيخ هادي آل كاشف الغطاء.

نتفاً من ذلك الوصف على أننا سنعود إليه في فقرة لاحقة إن شاء الله.

قال عليه السلام يصف نملة:

«انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيأتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدق الفكر، وكيف دبت على أرضها وصُبّت على رزقها؛ تنقل الحبة إلى جحرها وتعدها في مستقرها، وتجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها، مكفولة برزقها، مرزوقة بوفقها، لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس. ولو فكرت في مجاري أكلها، وفي علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً ولقيت من وصفها تعباً، ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة، لدقيق تفصيل كل شيء، وغامض اختلاف كل حي»[1].

وقال عليه السلام يصف الخفاش:

«ومن لطائف صنعته، وعجائب حكمته، ما أرانا من غوامض الحكمة، في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء، ويبسطها الظلام القابض لكل حي، وكيف عشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها، وتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها، وردعها

(١) مدارك نهج البلاغة للشيخ هادي آل كاشف الغطاء.

بتلألؤ ضيائها عن المضي في سبحات إشراقها، وأكنّها في مكامنها، عن الذهاب في بلج ائتلاقها، فهي مسدلة الجفون في النهار عن أحداقها، جاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها، فلا يرد أبصارها أسداف ظلمته، ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته، فإذا ألقت الشمس قناعها وبدت أوضاع نهارها، ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها، أطبقت الأجفان على مآقيها وتبلغت بما اكتسبت من فيء ظلم لياليها، فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً، والنهار سكناً وقراراً، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران، كأنها شظايا الآذان غير ذوات ريش ولا قصب، إلا أنك ترى مواضع للعروق بينة أعلاماً، لها جناحان لما يرقا فينشقا، ولم يغلظا فيثقلا، وولدها لاصق بها لاجىء إليها، يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانه، ويحمله للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه، فسبحان الباري لكل شيء على غير مثال خلا من غيره[١].

وقال عليه السلام يصف الجرادة:

«وإن شئت قلت في الجرادة، إذ خلق الله لها عينين حمراوين، وأسرج لها حدقتين قمراوين، وجعل لها السمع الخفي، وفتح لها الفم السوي، وجعل الحس القوي، ونابين بهما تقرض ومنجلين بهما تقبض، يرهبها الزراع في زرعهم ولا يستطيعون ذبها، ولو أجلبوا بجمعهم، حتى ترد الحرث في

(١) خطب أمير المؤمنين/ لأبي الخير صالح بن حماد سلمة الرازي.

نزواتها، وتقضي منه شهواتها، وخلقها كله لا يكون إصبعاً مستدقة[1].

وقال عليه السلام يصف الطاووس:

«ويمشي مشي المرح المختال، ويتصفح ذنبه، وجناحيه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصابيغ وشاحه، فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا معولاً، وقد نجمت من طنبوز ساقه صيصية خفيفة، وله في موضع العرف قنزعة خضراء موشاة، ومخرج عنقه كالإبريق، ومغرزها إلى حيث بطنه، كصبغ الوسمة البانية، أو كحريرة ملبسة مرآة ذات صقال»[2].

ثم:

«ولو كان كزعم من زعم أنه يلقح بدمعة تسفحها مدامعه، فتقف في ضفتي جفونه، وأن أنثاه تطعم لذلك ثم تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنحبس، لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب»[3].

هذا فضلاً عن وصفه الأرض بأنهارها وجبالها وهضابها ومنبطحاتها، والسماء ونجومها وما فيها من عجائب الخلق، ودقائق الصنعة[4].

---

(١) خطب أمير المؤمنين/ المروية عن الصادق عليه السلام المتوفى سنة ١٤٨ هـ.
(٢) خطب أمير المؤمنين/ لأبي محمد أو أبي بشر مسعدة بن صدقة العبدي.
(٣) خطب أمير المؤمنين/ برواية أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي الأسلمي.
(٤) رسائل أمير المؤمنين/ لإبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي المتوفى سنة ٢٨٣ هـ.

إن دقة الوصف تلك من لدن الإمام علي عليه السلام تُعد مفخرة لحضارتنا العربية والإسلامية أن يبرز فيها مثل علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يحمل في تلافيف دماغه خوارق عقلية وفكرية عجيبة يظل التاريخ، مهما امتد واتسع، يذكرها بفخر واعتزاز.

٩ ـ الألفاظ الاصطلاحية:

ومما تعكزوا عليه في نفي نسبة ما في نهج البلاغة إلى الإمام علي عليه السلام، استعمال ألفاظ اصطلاحية، التي يزعمون أنها عرفت في علوم الحكمة بعد تعريب كتب اليونان والفرس الأدبية والحكمية.

ولا أحسبني بحاجة إلى الإفاضة في هذا الموضوع لأنني قد تحدثت عنه في كثير من المواضيع التي مرت وأبرزها قول النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم:

«أنا مدينة العلم وعلي بابها» لذلك وجدت من المفيد الاستئناس برأي العلامة الشيخ محمد جواد مغنية، إذ يقول[١]:

«إن في القرآن قضايا علمية وفلسفية وتشريعية لم تعرفها العرب في عهد النبي ولا قبله، وقد استدل علماء الكلام، وفلاسفة المسلمين بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في كثير من الموضوعات الفلسفية التي تكلموا عنها، فهل هذه الآيات منحولة مدسوسة؟ وهل من الضروري إذا اتفق قول مع قول أن يكون

---

(١) فضائل الإمام علي ـ محمد جواد مغنية.

أحدهما مصدراً للآخر، وقد أثبت علماء الغرب والشرق من غير المسلمين بأن القرآن والسنة هما المصدر الأول للحضارة الإسلامية وعلومها وفلسفتها، وكلنا يعلم أن علياً هو صنو الرسول وتلميذه ونجيّه، وشريك القرآن، بل هو القرآن الناطق، وما بين الدفتين القرآن الصامت.

والغريب أن هؤلاء المنكرون لا يستكثرون على ابن خلدون الكلام في علم الاجتماع قبل أن يعرفه روسو(١) ومونتسكيو(٢) وأن يقولوا عن علومه ومعارفه: (إنها تدفق فجائي وحدس باطني، واختمار لا شعوري)، ويستكثرون على باب مدينة العلم أن يصف الطاووس، وأن يقول: الله أيّن الأين فلا يقال له أين؟ وكيّف الكيف فلا يُقال له كيف؟ ولأن يصف الباري تعالى بصفات تليق بجلاله، وهو أعرف الناس به بعد الرسول.

هذا إلى أن الإمام تكلم عن أشياء لا يعرفها اليونان ولا غير اليونان».

تلك هي كلمة الحق والموضوعية ولكن المشككين يصمون آذانهم كي لا يسمعوها ويعصبون عيونهم كي لا يروا الحقيقة شمساً ساطعة.

---

(١) جان جاك روسو: ولد في جنيف سنة ١٧٦٢م، من كبار الكتاب في علم الاجتماع الفرنسيين، ومن مشاهير الدعاة إلى الثورة الاجتماعية. توفي سنة ١٧٧٨م.

(٢) مونتسكيو: مؤلف فرنسي له: «أصول النواميس والشرائع» ولد سنة ١٦٧٩م وتوفي سنة ١٧٥٥م.

١٠ ـ التقسيمات العددية:

ومن تشكيكاتهم في نسبة ما في «نهج البلاغة» إلى الإمام علي عليه السلام ورود تقسيمات عددية فيه. يقول محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته على النهج:

«وكذلك استعمال الطريقة العددية في شرح المسائل في تقسيم الفضائل أو الرذائل مثل قوله: «الاستغفار على ستة معانٍ» «الإيمان على أربع دعائم، الصبر واليقين والعدل والجهاد، والصبر منها على أربع شعب».

وبمثل ذلك قال أحمد أمين وغيره.

لا أدري أين كان الكتاب من أقوال العرب قبل الإسلام وأقوال الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم؟

يبدو أنهم لم يطلعوا على ذلك، وهذا نقص في الباحث عن الحقيقة فلا يحق له إعطاء الرأي ـ إذن ـ. أو أنهم يعرفون ذلك ولكنهم يريدون طمس الحقائق من خلال نفي وجودها، وهذا ليس من حقهم لأنه تراث يخص حضارة العرب منذ أن دب عربي على الأرض. وقبل أن تكون المذاهب والتعصب المذهبي، فإن غيرهم قد (فتح) عينيه (جيداً) ورأى شمس الحقيقة ساطعة ولكنها مغطاة بغربال فمزقوا هذا الغربال فظهرت الشمس «على الـ . .» وهو ما نحن بصدده، إذ ستوقظهم من نومتهم بشمس الحقيقة وتجعلهم (يفركون) عيونهم من ظلام أناخ بكلكله عليهم فحرمهم ضوء الشمس ومتعة الضياء. ولكي يكون كلامنا لا ثاني له سنذكر ما جاء على لسان من تربى الإمام علي عليه السلام في حجره وأخذ عنه

علومه في مدرسة الإسلام الأولى وهو الرسول العظيم محمدﷺ، ولسان الصحابة والخلفاء الراشدين. وهو بالتأكيد قبل صدور «نهج البلاغة» بقرون.

فإذا قال الإمام علي لقائل بحضرته: أستغفر الله: ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار؟ إن للاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العودة إليه أبداً، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك تبعة، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله.

أقول.. فإذا قال الإمام ذلك فإن رسول اللهﷺ قال قبله:

«ستة أشياء حسنة ولكنها من ستة أحسن، العدل حسن وهو من الأمراء أحسن، والصبر حسن وهو من الفقراء أحسن، والورع حسن وهو من العلماء أحسن، والسخاء حسن وهو من الأغنياء أحسن، والتوبة حسنة وهي من الشباب أحسن، والحياء حسن وهو من النساء أحسن، وأمير لا عدل له كغمام لا غيث له، وفقير لا صبر له كمصباح لا ضوء له، وعالم لا ورع له كشجرة لا ثمر لها، وغني لا سخاء له كمكان لا نبت له، وشاب لا توبة له كنهر لا ماء فيه، وامرأة لا حياء لها كطعام لا

ملح له»[١]. وقال ﷺ: «معشر المسلمين إياكم والزنى فإن فيه ستة خصال، ثلاثة في الدنيا وثلاثة في الآخرة، فأما التي في الدنيا فإنه يذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر، وأما التي في الآخرة فإنه يوجب سخط الرب وسوء الحساب والخلود في النار»[٢].

وقال ﷺ: «أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه والثاني إلى قبره، والثالث إلى محشره، فالذي يتبعه إلى قبض روحه فماله، والذي يتبعه إلى قبره فأهله، والذي يتبعه إلى محشره فعمله»[٣]. وعن عبد الرحمن بن عوف قال: إنه دخل على أبي بكر الصديق في مرضه الذي توفي فيه فأصابه مهتماً فقال له عبد الرحمن: أصبحت والحمد لله بارئاً، فقال أبو بكر أتراه؟

قال: نعم.

قال: إني وليت أمركم خيركم في نفسي فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير، ونضائد الديباج، وتألموا الاضطجاع على الصوف الآذري كما يؤلم أحدكم أن ينام على حسك، والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا، وأنتم أول ضال بالناس غداً، فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً، يا هادي الطريق إنما هو الفجر أو البحر.

---

(١) الإرشاد للديلمي.

(٢) الخصال للصدوق.

(٣) الترغيب والترهيب.

فقلت له:

خفض عليك ـ رحِمك الله ـ فإن هذا يهيضك في أمرك، إنما الناس في أمرك بين رجلين إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك، وصاحبك كما تحب، ولا نعلمك أردت إلا خيراً، ولم تزل صالحاً مصلحاً، وأنك لا تأس على شيء من الدنيا.

قال أبو بكر:

«أجل إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن وددت أني تركتهن وثلاث تركتهن وددت أني فعلتهن، وثلاث وددت أني سألت رسول الله ﷺ عنهن. فأما الثلاث التي وددت أني تركتهن، فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء وإن كانوا فد غلقوه على الحرب ووددت أني حرقت الفجاءة السلمي وأني قتلته سريحاً، أو خليته نجيحاً، ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين ـ يريد عمر وأبا عبيدة ـ فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً.

أما اللاتي تركتهن، فوددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه، فإنه تمثل لي أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه، ووددت أني حين سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذي القصة، فإن ظفر المسلمون ظفروا وإن هزموا كنت بصدد لقاء أو مدد ووددت أني إذ وجهت خالداً إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق، فكنت قد بسطت يدي كليهما في سبيل الله، ومدَّ يديه. ووددت أني سألت رسول الله ﷺ

لمن هذا الأمر؟ فلا ينازعه أحد، ووددت أني كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعمة فإن في نفسي منهما شيء»[١].

وقال عمر بن الخطاب في حديث له:

«النساء ثلاث فهينة لينة، عفيفة مسلمة تعين أهلها على العيش ولا تعين العيش على أهلها، وأخرى وعاء للولد، وأخرى على قمل يضعه الله في عنق من يشاء ويكفه عمن يشاء.

والرجال ثلاثة، رجل ذو رأي وعقل، ورجل إذا حزبه أمر أتى ذا رأي فاستشاره، ورجل حائر بائر، لا يأتمر رشداً ولا تبع مرشداً»[٢].

تلك بعض الأحاديث النبوية والأقوال التي وردت عن أبي بكر وهي جزء يسير مما لو أردنا الإفاضة به، وهدفنا الإشارة فقط إلى أن هذا اللون من الكلام متجذر في عمق الحضارة العربية ولكن إزميل محمد محيي الدين وأحمد أمين وشفيع السيد ومحمود محمد شاكر وغيرهم، إما أن يكون قصيراً فلا (ينوش العمق) أو من معدن رخو فلا يستطيع التوغل في البحث أو مثلَّماً لا يصلح لعمل بحث علمي منهجي كهذا. أقول هذا مضطراً لأن المطابع في لبنان ـ خاصة ـ تضخ يومياً مئات العناوين من الكتب، وللكتب التراثية حصة كبيرة منها، ولكن مع ذلك نرى

---

(١) أخرجه أبو عبيدة في (الأموال) والطبري في تاريخه، وابن قتيبة في (الإمامة والسياسة) والمسعودي في (مروج الذهب) وابن عبد ربه في (العقد الفريد).

(٢) غريب الحديث لابن قتيبة.

أمثال هؤلاء الكتاب لم يشيروا إلى ما أشرنا، يبدو أنهم لا يريدون أن يطلعوا على تلك المصادر لكي يقنعوا أنفسهم بأن ما قالوه من المسلّمات..

أما نحن فقد أدينا مهمتنا فليؤمن من يريد أن يؤمن وليكفر من يريد أن يكفر. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

١١ ـ التنبؤات والتوقعات:

ومن تشكيكاتهم في «نهج البلاغة» كونه احتوى بعض الخطب والأحاديث التي تنبأ وتوقع الإمام فيها وقوع أحداث مستقبلية فقالوا إنها منحولة..! ومن مدخول الكلام عليه.

قال محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته على نهج البلاغة:

«إن فيه عبارات ما يشم منه ريح ادعاء صاحبه على الغيب، وهذا أمر يجل عن مثله مقام علي ومن كان على شاكلة علي ممن حضر عهد الرسول ورأى نور النبوة».

أما عباس محمود العقاد هو الآخر يقول:

«إن التنبؤات التي جاءت في «نهج البلاغة» عن الحجاج وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها من مدخول الكلام عليه، مما أضاف النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل»[١].

---

(١) عبقرية الإمام علي.

لقد تحدثنا في الفقرة التاسعة (دقة الوصف) عن الخارقية التي كان الإمام يتمتع بها في شيء من الإيجاز أو بمرور كمرور الكرام، وفي فقرتنا هذه نرى أن نتوقف عندها بشيء من التفصيل غير المتوسع فيه.

إن الخارقية كعلم لم يثبت أقدامه بعد في وطننا العربي ولكنه في غير وطننا العربي دخل المختبرات وصاروا يجرون عليه التحليلات المختبرية في جوانبه كلها؛ كما في أمريكا والاتحاد السوفياتي (سابقاً) ولقد اهتمت تلكما الدولتان بهذا العلم وسمي (الباراسايكولوجي) أي ما وراء النفس، أو الإدراك الحسي العالي، أو الخارقية كما ثبّتنا في فقرتنا التاسعة وفقرتنا هذه.

في الواقع إن الخارقية موجودة في هذا الشعب أو ذاك وفي أجناس مختلفة من العالم وفي عصور مختلفة هي الأخرى. ولكم قرأنا أو سمعنا أن شخصاً ما ظهر في هذا المكان أو ذاك وصار يتحدث بأشياء مستقبلية ويطبب المرضى ويؤثر في الأشياء سلباً وإيجاباً بنظرة من عينيه، أو يستكنه الأشياء المخفية فيُدِل عليها ويعطي أوصافها وكمياتها أو مقاديرها. وإذا ما أردنا الخوض في هذا الموضوع فالأمثلة من الكثرة بحيث يمكن إفراد كتاب ضخم لها ولكننا سنضرب أمثلة قليلة ونمر بها سريعاً لندخل بعد ذلك في موضوعنا (التنبؤات والتوقعات عند الإمام علي عليه السلام).

في أحد الأيام دخل شاب ألماني إلى مدينة الألعاب عندهم (لونا بارك) وبعفوية محضة نظر إلى ساعته اليدوية وركز في نظره على أميالها فالتوت الأميال فتعجب من الأمر فرفع رأسه شاخصاً

ببصره إلى العربات الكهربائية السلكية وهي تجري كأنها تسير على سكة قطار على الأرض وصار يديم النظر بتركيز شديد فتوقفت العربات عن العمل وأصاب الناس الذعر فهرع مسؤولو مدينة الألعاب وفيما هم في حيرة من أمرهم، أخبرهم الشاب الألماني أن توقفها كان بتأثير من عينيه، وهنا سرعان ما استدعي ذلك الشاب إلى مقر لجنة من العلماء ليستفيدوا من قدرته الخارقية تلك.

وثمة صبي اسمه (عليوف) كان طالباً في مدرسة متوسطة في مدينة (كييف) في الاتحاد السوفياتي (السابق). كان هذا الصبي لا يرتاح لدرس الأدب، وفي أحد الأيام ـ وهو على رحلة الدرس ـ ركز نظره على المدرس المختص بدرس الأدب، حتى استطاع ـ دون أن يدري بادئ الأمر ـ أن يربك المدرس فصار يتلعثم بكلامه أو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً دون إرادته. ولما شعر المدرس بالإحراج كلف أحد الطلاب بقراءة الدرس فصار (عليوف) يركز نظره على زميله فأربكه هو الآخر فعرف (عليوف) أن ذلك كان بتأثير عينيه، أخبر أهله بالأمر فصاروا يختبرونه إذ أخفوا عدة روبلات وسألوه عما أخفوا فأخبرهم ودلهم على مكانها.

وثمة عائلة تسكن قضاء الكوفة التابعة حالياً لمحافظة النجف تعمل في صيد السمك يستطيع أفراد هذه العائلة رؤية ما خلف الثياب بقدرة خارقية من أبصارهم.

وثمة عائلة أخرى في قضاء الهندية (طويريج) التابع لمحافظة كربلاء (حالياً) يستطيع أي واحد منها إيقاف السفن عن الحركة بمجرد النظر إليها بتركيز خاص.

وثمة فتاة وأبوها في لبنان يستطيع الأب تسريب حرارة المحموم من جسمه بمجرد مسك يد المحموم فتتسرب الحرارة من جسمه إلى يد الرجل ومنها تنتشر في الفضاء. فيما تستطيع الفتاة أن تحرك الأشياء دون أن تلمسها، كما تستطيع قراءة أي كتاب بالمقلوب.

وفي الستينيات من القرن العشرين ظهر صبي عراقي اسمه عادل شعلان يستطيع حل أي مسألة حسابية أو رياضية معقدة دون أن يستخدم القلم أو أي جهاز إلكتروني. وكان في الصف الخامس الابتدائي.

ومثله فتاة هندية.

وفي أوائل السبعينيات ظهر صبي آخر في العراق اسمه ظافر إذ أظهره السيد كامل الدباغ في برنامجه التلفزيوني (العلم للجميع) كان يضرب أي رقم في أي رقم آخر مهما طال ويعطي النتائج بلا خطأ. حتى وصل حد الأرقام إلى ما لا توجد في أرقامنا فسماه مقدم البرنامج: (ظافريون).

وثمة طفلة في كوريا لأبوين مدرسين في كلية الهندسة تستطيع حل أعقد المسائل الهندسية التي عجز الطلاب من حلها وقد عرضت في تلفزيون العراق.

وفي العراق أشخاص كثيرون يتمتعون بكهرومغناطيسية في أجسامهم يستطيعون بواسطتها شفاء كثير من الأمراض.

كما أن بعض الأشخاص منهم لهم القدرة على التنبؤ بنتائج

الانتخابات العامة، ويتوقعون أحداثاً مستقبلية أغلبها، إن لم يكن كلها، كان صادقاً وواقعاً.

وأخيراً وليس آخراً هناك الطبيب الفرنسي الشهير صاحب التنبؤات المعروفة باسمه «تنبؤات نوستر آداموس» التي طبعتها الدار الوطنية لوزارة الثقافة والإعلام في العراق. تلك التنبؤات التي اهتم بها العالم أيما اهتمام وصُوِّرت بالفيديو وعرضت على شاشات التلفزيون؛ وهي عبارة عن رباعيات فيها توقعات أحداث خلال عشرة قرون، قال شراحها إنها تحققت وما زالت تنتظر التحقيق.

تلك كانت إلمامة سريعة عن ذوي القدرات الخارقية ومن أراد التوسع يمكنه أن يجد ذلك من خلال معاينات شخصية في الحياة أو خلال تناثرها هنا وهناك في بطون الكتب التراثية والحديثة.

والآن نتساءل، أيهما أقرب إلى التصديق والقبول في امتلاك قدرة خارقية، الشاب الألماني أو عليوف أو عادل شعلان أو ظافر أو الطفلة الكورية أو الرجل اللبناني وابنته أو العائلة الكوفية (السماكة) أو العائلة الطويرجاوية ـ نسبة إلى قضاء الهندية ـ أو نوستر آداموس أم الإمام علي بن أبي طالب؟.

نحن لا نعرف عن أولئك الذين ذكرناهم الشيء الكثير في النسب والعراقة، ولكننا نعرف عن علي بن أبي طالبعليه السلام أنه ربيب حجر النبوة، إذ تقول الروايات إنهعليه السلام عندما ولد جاءه الرسول محمدصلى الله عليه وآله وسلم ففتح الغشاوة فأخرج منها غلاماً حسناً فشاله

بيده، وسماه علياً، وبصق في فيه وأصلح أمره ثم إنه ألقمه لسانه، فما زال يمصه حتى نام. وقد ذكرنا ذلك من قبل. وهكذا كان في اليوم الثاني.

إذن فعلي بن أبي طالبعليه السلام ما كان شخصاً عادياً مقطوع الجذور عن العراقة العربية والنبع الإسلامي الصافي؛ فهو إمام البلغاء وسيد الفصحاء وهو باب مدينة العلم، وهو الذي «سن الفصاحة لقريش»، وهو الذي تعلم من ذي علم، وهو الذي ورث علمه من رسول اللهصلى الله عليه وآله. فهل كثير عليه أن يتنبأ ويتوقع؟

إن العالم يقيم الدنيا ويقعدها إذا ما برز شخص في جانبٍ ما فيه شيء من الخارقية فتبدأ الصحافة والوسائل المسموعة والمرئية تتسابق في نشر الخبر وتنظيم اللقاءات معه، والشواهد كثيرة عبر تاريخنا المعاصر.

فما بالنا نحن العرب ـ وقد برز فينا شخص قلما برز مثله في التاريخ ـ وأعني به الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام لا نفخر به أمام العالم باعتباره يشكل الجزء الأكثر إضاءة في حضارتنا العربية والإسلامية؟

وللأسف أقول إننا بدلاً من أن نزداد فخراً بشخصية علي بن أبي طالبعليه السلام انبرى بعض مثقفينا، لا للتقليل من شأنهعليه السلام فحسب بل توجيه السهام من خلال التشكيك بمعطياته الذهنية والإبداعية ناسين، أو متناسين أن التشكيك بتلك المعطيات إنما هو تشكيك بحضارتنا العربية والإسلامية لأن علي بن أبي طالبعليه السلام يقف في رأس تلك الحضارة كأبرز معلم من معالمها التاريخية المضيئة.

لقد «خُص علي بن أبي طالب بالمعرفة الإلهامية، مثلما خص بالتوقد العقلي، وقد تلقى عليﷺ تلك المعرفة من النبي العظيم، الذي كان يلقمه العلم، ويشهده التجربة، فكانت روحه ترى ما لا تراه العين، وكان ذهنه الذي يتفتق عن المعارف والأفكار، يومض بالحدس، والتوقعات التي تدخل ضمن رؤى أكدتها الأحداث والوقائع»[1].

إن المغيبات في نهج البلاغة إنما هي «نتيجة تعلم الإمام من ذي علم، فإن الله تعالى أطلع نبيّهﷺ على أمور غيبية فعلّمها النبي لوصيّهﷺ ودعا له بأن يعيها صدره وتضطم عليها جوانحه، فأخبر أمير المؤمنين الناس ببعض ذلك حسب مقتضيات الأحوال، وأفضى إليهم ببعض ما سمع وما كذَب ولا كُذّب»[2].

قال الإمام موسى الكاظمﷺ مجيباً يحيى بن عبد الله بن الحسن لما قال له:

«جعلت فداك إنهم يزعمون أنك تعلم الغيب؟»

فقالﷺ:

ـ سبحان الله ضع يدك على رأسي فوالله ما بقيت شعرة فيه ولا في جسدي إلا قامت.

ثم قال:

ـ لا والله ما هي إلا وراثة ورثتها عن رسول اللهﷺ»[3].

---

(١) مصادر نهج البلاغة وأسانيده ـ عبد الزهراء الخطيب.

(٢) أنظر أمالي الشيخ المفيد.

(٣) أنظر عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب. وعزيز السيد جاسم: علي بن أبي طالب سلطة الحق.

وقال الشيخ ميثم البحراني في شرحه «نهج البلاغة» في كيفية علم أمير المؤمنينعليه السلام بعض المغيبات:

«لا يقال لا نسلّم أن ذلك علم ألهمه الله إياه، وأفاضه عليه، بل الرسولصلى الله عليه وآله وسلم أخبره بوقائع جزئية من ذلك، وحينئذ لا يبقى بينه وبين غيره فرق في هذا المعنى، فإن الواحد منا لو أخبره الرسولصلى الله عليه وآله وسلم بشيء من ذلك لكان له أن يحكي ما قاله الرسول وإن وقع الخبر به على مثل قوله، ويدل على ذلك قوله بعد وصف الأتراك وقد قال له بعض أصحابه في هذا المقام؛

ـ لقد أُعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب. فضحك وقال للرجل وكان كلبياً:

ـ يا أخا كلب ليس هذا بعلم غيب، إنما هو تعلم من ذي علم. وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾[1].

من ذكر وأنثى وقبيح وجميل، وشقي وسعيد، ومن يكون للنار حطباً، أو في الجنان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيهصلى الله عليه وآله وسلم فعلمنيه، ودعا بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي».

وهذا تصريح بأنه تعلم من رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم لأنا لا نقول: إنا لم ندع أنهعليه السلام يعلم الغيب، بل المدعى أنه كان لنفسه القدسية

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

استعداد أن تنتقش بالأمور الغيبية عن إفاضة جود الله تعالى، وفرق بين الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وبين ما ادعيناه، فإن المراد بعلم الغيب هو العلم الذي لا يكون مستفاداً عن سبب يفيده وذلك إنما يصدق في حق الله تعالى إذ كل علم لذي علم مداه فهو مستفاد من جوده إما بواسطة أو بغير واسطة فلا يكون علم غيب وإن كان إطلاعاً على أمر غيبي لا يتأهل للإطلاع عليه كل الناس، بل يختص بنفوس خُصّت بعناية إلهية كما قال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[1] فإذا عرفت ذلك ظهر أن كلامه عليه السلام صادق مطابق لما أردناه فإنه نفى أن يكون ما قاله علم غيب لأنه مستفاد من جود الله تعالى، وقوله:

«وإنما هو تعلم من ذي علم» إشارة إلى واسطة تعليم الرسول له وهو إعداد نفسه على طول النصيحة بتعليمه، وإشارة أن كيفية وأسباب التطوع والرياضة حتى استعد للانتقاش بالأمور الغيبية والإخبار عنها، وليس التعليم هو إيجاد العلم ـ وإن كان أمراً قد يلزم إيجاد العلم ـ فتبين إذن، أن تعليم رسول الله ﷺ لم يكن مجرد توقيفه على الصور الجزئية بل إعداد نفسه بالقوانين الكلية، ولو كانت الأمور التي تلقاها عن الرسول ﷺ صوراً جزئية لم يحتج إلى مثل دعائه وفهمه لها فإن فهم الصور الجزئية أمر ممكن سهل في حق من له أدنى فهم، وإن ما يحتاج إلى الدعاء، وإعداد الأذهان له بأنواع الإعدادات هو الأمور الكلية العامة

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

للجزئيات وكيفية انشعابها عنها وتفريعها وتفصيلها وأسباب تلك الأمور المتعددة لإدراكها، وما يؤيد ذلك قوله عليه السلام: «علّمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم فانفتح لي من كل باب ألف باب». وقول الرسول: «أعطيت جوامع الكلم وأعطي علي جوامع العلم». والمراد بالانفتاح ليس إلا التفريع وانشعاب القوانين الكلية عما هو أهم منها، وبجوامع العلم ليس إلا ضوابطه وقوانينه. وفي قوله (أُعطي) بالبناء للمفعول دليل ظاهر على أن المعطي لعلي جوامع العلم ليس هو النبي صلى الله عليه وآله بل الذي أعطاه ذلك هو الذي أعطى النبي صلى الله عليه وآله جوامع العلم وهو الحق سبحانه.

أما الأمور التي عددها الله سبحانه فهي من الأمور الغيبية، وقوله:

لا يعلمها أحد إلا الله كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1] وهو محتمل للتخصيص كما هو في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[2]، وهذا الأمر واضح لا يحتاج العاقل إلى استكشافه إلى كلفة.

يظهر مما نقلنا عن البحراني ـ وقد أطلنا فيه ـ أن معطيات الإمام علي عليه السلام التنبؤية والتوقعية أو (الغيبية) مصدرها أمور ثلاثة هي:

١ ـ التكوين الخلقي: أي تكون الخلايا الدماغية التي

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

تتحسس ما هو فوق الإدراك الحسي الاعتيادي للإنسان كالحاسوب الذي بلغ من تطوره العملياتي ما تجاوز الأجيال التي سبقته في الصنعة شكلاً ومحتوى، أي في الحجم والخلايا، وهذا التكوين من الله جلت قدرته.

٢ ـ التعليم المستمر والدربة المتواصلة والرياضة النفسية وهذا من الرسول ﷺ.

٣ ـ الاستعداد النفسي في التحمل والصبر، وهذا ما ألزم نفسه به عليه السلام فهو منه.

إذن؛ إن الإمام علياً عليه السلام أراده الله أن يكون كذلك فأوصى إلى نبيه الكريم محمد ﷺ أن يعدّه الإعداد الذي أراده الله فلبّى الرسول أوامر ربه خاصة أنه وجد في الإمام عليه السلام الاستعداد المدهش لهذا التكليف الإلهي.

«وقد كانت البصيرة المحمدية الملهمة، قد أعطت كلمات النبوءة التي فسّرت جميع ما مر به علي بن أبي طالب عليه السلام من محن أو صراعات، وحروب مدمِّرة، داخل الوسط الإسلامي، ومن الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رجل يقال له «ذو الثدية» كان ـ قبل ذلك ـ يتجاسر على رسول الله ﷺ، وهو يوزع غنائم معركة (حنين).

ـ إعدل يا محمد!

فيتجاهله الرسول، فيكرر بصلافة:

ـ إعدل يا محمد!

ثم يكرر:

ـ إعدل يا محمد فإنك لم تعدل!

فيجيبه الرسول غضباً:

ـ ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟

أراد البعض قتله، ولكن الرسول أبى ذلك، ثم قال لهم:

«.. سيخرج من ضئضىء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر أحدكم إلى نصله فلا يجد شيئاً، ثم ينظر إلى القذذ فكذلك سبق الفرث الدم.. يخرجون على حين غرة من الناس تحتقر صلاتكم في جنب صلاتهم، وصومكم عند صومهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، آيتهم رجل أسود محدج اليد، إحدى يديه كأنها ثدي امرأة، إنهم شر الخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة، وأقربه عند الله وسيلة..».

وحلَّ وقت آخر، وفي زمن آخر، توجه فيه علي عليه السلام إلى الخوارج الذين قادوا أنفسهم إلى المذبحة والهزيمة.

كان علي متأكداً أن «ذو الثدية» من بين قتلى الخوارج، قائلاً لأصحابه:

«والله ماكَذَبتُ وما كُذِّبتُ ـ أُطلبوا الرجل ـ إنه في القوم!».

وفتشوا الجثث واحدة واحدة، حتى عثروا عليه فصاح الناس:

ـ ذو الثدية!

خرَّ عليٌ ساجداً شاكراً وهو يقول:

- صدق الله ورسوله!

وهلل المسلمون.

- الله أكبر.. الله أكبر!

وتؤاتيه المعرفة الإلهامية بتنبؤ مدهش حين جاؤوه بمروان بن الحكم، بعد انتصاره في حرب الجمل، وكان قد استشفع له الحسن والحسينعليهما السلام طالبين له الغفران.

وانتهى الفتيان بعد قليل من استرحامه، واستنزال عفوه، على الباغي المقهور، ثم أردفا يقولان:

- يبايعك يا أمير المؤمنين.

وتأتي ومضة أخرى تميط الغطاء عن أحداث مأساوية قادمة فيا لها من ومضة تكشف عن مأساة كالحة!

كان في طريقه إلى الشام، فوقف عند بقعة؛ سيشتهر إسمها (كربلاء) وظل يرنو إليها بنظرةٍ واجمةٍ، ويهمس بصوت حزين:

«ههنا، ههنا! ههنا موضع رحالهم! ومناخ ركابهم! ههنا مهراق دمائهم».

فتأخذ الناس من حديثه رجفة، ويسألون في توجس وإشفاق:

«وماذا يا أمير المؤمنين؟».

ويتمهل بهم حتى إذا دارت عينه فرأت الحسين، توقف

نظره، على محيّاه في رنوة حانية، ندية غائمة، هتف يجيب:

«ثقل لآل محمد ينزل ههنا.. فويل لهم منكم.. وويل لكم منهم.. ويل لهم منكم: تقتلونهم.. وويل لكم منهم، يدخلكم الله بقتلهم إلى النار!».

ويسير ناكس الرأس إلى مطيته[1].

ونضيف إلى ما أوردناه من تنبؤاته وتوقعاته عليه السلام تلك الرؤيا الواقعية التي جعلته يرى وجه قاتله «عبد الرحمن بن ملجم المرادي».. يرى يده.. وهيأته فيحدس حدس العارف بباطن الزمن الآتي، كان رسول الله يقول له:

ـ يا علي.. أتعلم من أشقى الأولين؟

ـ نعم.. عاقر الناقة.

ـ أتعلم من أشقى الآخرين؟

ـ لا..

ـ من يضربك ههنا (مشيراً إلى هامته)، ويخضب هذه (مشيراً إلى لحيته).

وهاهو الأشقى يأخذ حصته من العطاء، عليٌّ يتفحصه مردداً:

ـ من يحبس أشقاها؟

---

(١) المصدر السابق نفسه.

ما كان ابن ملجم يعلم ما ادّخره له القدر من دور خسيس، لكن علياً كان يتذكر كلمات الرسول، كان يتذكر نبوءة الدم، وفعلة الشقي، فكم قال لبعض خاصته المحبين الذين كانوا يشفقون عليه، حين الحرب من خوض الحشود، واقتحام السلاح، غير آبه شيئاً بما يصيبه أثناء القتال:

«إني لا أُقتل محارباً، وإنما أُقتل فتكاً وغيلة.. يقتلني رجل خامل الذكر»

«والتقت العيون المذعورة، واسعة الحملاق، حائرة النظرات، وتناثر في الجو حوله رشاش الهمسات في تساؤل واستفسار، لكن الإمام مال عنهم إلى الوافد المشبوه، فمنحه عطاءه الذي جاء له، ثم تمثل ببيت شعر لعله أن يغني عن التفسير:

أريد حياته ويريد قتلي
عذيرك من خليلك من مراد

هنا انبثق من البيت المروي مثل شعاع أضاء في الخواطر ما قد غمض على الناس في بدء ذلك اللقاء، من كلام الإمام، الآن رفع الغطاء وبرح الخفاء وانجاب الستر عن السر المسربل بالغيب، فلا حاجة بهم إلى تعقب أمره، أو تبين ملامحه من خلال غموض الإيماء.. فطالب العطاء الذي أثار قلق القوم، وحرك فيهم الشعور بالخطر حميري من اليمن فيما يعلم نفر منهم غير قليلين، نسبة آل مراد، أهو حليف المراد..؟

ـ هلا تقتله يا أمير المؤمنين؟

ـ فكيف أقتل قاتلي؟

ثم قال:

ـ إنه إن لم يقتلني، فكيف أقتل من لم يقتل؟

أي كيف يقام القصاص بغير جرم، والعقاب قبل الجريمة؟.

ومن تنبؤاته عليه السلام لما قال:

«سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلا أنبأتكم بناعقها وسائقها».

قام إليه رجل فقال:

ـ أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر.

فقال له عليه السلام:

ـ والله لقد حدثني خليلي إن على كل طاقة شعر من رأسك ملك يلعنك وإن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك وإن في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكان ابنه قاتل الحسين عليه السلام طفلاً يحبو ـ وهو سنان بن أنس النخعي ـ[1].

وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الثمالي، عن سويد بن غفلة أن علياً عليه السلام خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت منبره فقال: يا أمير المؤمنين إني مررت بوادي القرن، فوجدت خالد بن

---

(١) شرح النهج ج٢.

عرفطة قد مات، فاستغفر له، فقال عليه السلام:

ـ والله ما مات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة، صاحب لوائه حبيب بن حمار، فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال:

ـ يا أمير المؤمنين، أنا حبيب بن حمار، وإني لك شيعة محب.

فقال:

ـ حبيب بن حمار؟

قال:

ـ نعم

قال له ثانية:

ـ الله إنك لحبيب بن حمار؟

فقال:

ـ إي والله.

فقال:

ـ أما والله إنك لحاملها ولتحملنها، ولتدخلن بها، من هذا الباب ـ وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة ـ.

قال ثابت:

«فوالله ما مت حتى رأيت ابن زياد، وقد بعث عمر بن سعد

إلى الحسين بن علي عليه السلام وجعل خالد بن عرفطة على مقدمته وحبيب بن حمار صاحب رايته، فدخل بها من باب الفيل»[1].

ومن تنبؤاته عليه السلام: ما أخبر به أن أعشى همدان يقتل على يد الحجاج بن يوسف الثقفي فكان ما أخبر به.

تلك التنبؤات ما هي إلا غيض من فيض وبعض من كل سقناها لا لغرض إحصائي، بل للإشارة فقط لعل الذين يشككون بأقوال الإمام وخارقيته أن يمزقوا تلك الشرانق التي لفوا أنفسهم بها، كما شكك العقاد رحمه الله بما ورد عنه عليه السلام عن الحجاج وفتنة الزنج وغارات التتار، فقال عنها: «إنها من مدخول الكلام عليه». «هب أن الأخبار عن الحجاج وفتنة الزنج أضيفت إلى الكتاب بعد صدوره بزمن قصير أو طويل ـ لأنه لا يريد أن يتهم الرضي بالوضع ـ ولكن كيف تضاف إلى الكتاب الأخبار عن فتنة التتار، وكل حوادث التتار من حملات جنكيز خان إلى احتلال هولاكو بغداد كان ما بين سنة (٦١٦) وسنة (٦٥٦) وهذه نسخ «نهج البلاغة» المخطوطة قبل هذا التاريخ.. وفيها نسخة المتحف العراقي المؤرخة سنة (٥٥٦) هـ أي قبل وقوع تلك الحوادث بمائة عام وفيها هذا الكلام الذي يشير فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى تلك الفتن والمحن وهو لا يختلف عما في النسخ المطبوعة، بل والمخطوطة أيضاً[2].

يقول ابن أبي الحديد في شرحه خطبة الإمام علي عليه السلام التي

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) مصادر نهج البلاغة وأسانيده ـ عبد الزهراء الخطيب.

أشار فيها إلى التتار «واعلم أن هذا الغيب الذي أخبرعليه السلام عنه قد رأيناه عياناً، ووقع في زماننا، وكان الناس ينتظرونه من أول الإسلام حتى ساقه القضاء والقدر إلى عصرنا، وهم التتار الذين خرجوا من أقاصي المشرق..».

لا أدري هل يكفي ما نقلنا من شواهد وما ثبّتنا من عينات أولئك المشككين في نسبة «نهج البلاغة» إلى الإمام عليعليه السلام، إذا كانوا موضوعيين فإنه يكفي وإلا فهم في ضلال مبين، لا يفرقون بين الليل والنهار ولا بين الظلمة والضياء، ولا بين الحق والباطل.

فلو كان علي بن أبي طالبعليه السلام (نوستر آداموس) لطبلوا له وزمروا ولشرحوا رباعياته وعملوا لها أفلاماً عرضوها على الشاشة الصغيرة، ولقالوا فيه ما قالوا بالشواهد والأدلة على صدق تنبؤاته. ولكن علي بن أبي طالب المسلم الأول وأصلب المجاهدين في سبيل الإسلام وابن عم الرسولصلى الله عليه وآله وزوج ابنته ووصيه وباب مدينة علمه، أقول.. ولكن علي بن أبي طالبعليه السلام أذهلهم بمعطياته الذهنية فراحوا في ضلالهم يعمهون ويقولون ما لا يفقهون ويلقون الكلم على عواهنه دون الرجوع إلى الأسانيد والثوابت التاريخية التي لا تقبل الرد والطعن.

١٢ ـ الزهد:

ومما أخذوه على «النهج» ما فيه من الحث على الزهد، وذكر الموت، وقرض أو ذم الدنيا على منهاج المسيحعليه السلام.

فالحياة الدنيا انعكاسات سلوكية الإنسان عبر نشاطاته وفعالياته ومعطياته المتعددة الجوانب، والإنسان نفسه ـ منذ أن هبط على هذه الأرض ـ كان أسير مفاصل الحياة؛ فكل مفصل يشده إليه، بهذا القدر أو ذاك، منذ أن كانت تلك المفاصل بسيطة لا تتعدى الغابة ومتطلباتها حتى تعقدت فشملت المدينة وتمخضاتها المتسارعة والمتشابكة بوتائر حرة تتساوق مع فهم الإنسان لها واستيعابه إياها وحيناً تسبقه في ذلك فيظل يلهث راكضاً خلف تلك التمخضات فيسقط في هذه الحفرة أو تلك ويصطدم بهذا الجدار أو ذاك وتأخذه الأمواج متلاطمة بين اصطفاق تلاطمها فلا ينجو منها إلا من كان يجيد السباحة فيرسو على البر متأملاً ذلك التلاطم في الأمواج تأمل من يريد أن يرسم له طريقاً يجعل الحياة معبراً إلى مستقر آخر يبعده عن تلك الحفر والجدران وذلك التلاطم في الأمواج.

وكان علي بن أبي طالب عليه السلام هو ذلك السابح الماهر الذي استطاع أن يتبين طريقه فيتجنب السقوط في حفر الحياة الدنيا والاصطدام بجدرانها والانجراف بأمواجها المتلاطمة، حتى إذا تمكن من ذلك تمكن الواثق من نفسه المعتمد على قدراته الإرادية المتفردة صار يراقب أولئك المتساقطين في حفر الحياة والمصطدمين بجدرانها والمنجرفين بتيارات أمواجها، وعندما اكتملت الصورة لديه راح يخضعها لفحوصات مختبرية عديدة من حيث المنظور والتساقط اللوني والأبعاد وغير ذلك من مقومات الصورة فخلص من تحليلاته المختبرية تلك إلى: إن على الإنسان ـ لكي يكون في مأمن من حفر الحياة وجدرانها وأمواجها

المتلاطمة ـ أن يعتمد في انعكاساته السلوكية ثالوثاً لا بد منه، شاء أم أبى، هو (الزهد ـ ذكر الموت ـ ذم الحياة).

والزهد في نظر الإمام علي عليه السلام له مفهوم خاص قد تفرد به بعد الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ بدأ بمحاسبة نفسه محاسبة شديدة ونادرة تفوق تصور العقل الإنساني؛ فقد تحدى الإمام مغريات الحياة وزخرفها البراق الخداع بخط مستقيم وثابت واعتمد في ذلك قانوناً صارماً سنّه لنفسه فسار بمقتضاه طوال حياته العاصفة، والقانون هو:

«من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه، قبل تعليم غيره».

وكان الرسول العظيم صلى الله عليه وآله وسلم أسوته الحسنة في ذلك إذ روى عنه قائلاً:

«لقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته، فتكون فيه التصاوير فيقول:

يا فلانة، لإحدى زوجاته، غيبيه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه لكي لا يتخذ منها رياشاً، ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو منها مقاماً».

وفي التطبيق العملي نراه عليه السلام، بعد أن هاجر إلى المدينة مع

من هاجروا إشتغل في مزرعة لأحد اليهود، «وبلغت ثروته ذات يوم أربعة دراهم فكره من أجلها نفسه، وسعى سعيه بالليل والنهار حتى أنفقها على ذوي حاجات فنزلت فيه الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً..﴾[1].

وخاطب بعض معارضيه بقوله عليه السلام:

«ما تنقمون مني؟ إن هذا من غزل أهلي (وأشار إلى قميصه»).

ورآه عدي بن حاتم وبين يديه شنّة فيها قراح ماء وكسرات من خبز شعير وملح، فقال:

- إني لا أرى لك يا أمير المؤمنين لتظل نهارك طاوياً مجاهداً وبالليل ساهراً مكابداً، ثم يكون هذا فطورك؟

فقال الإمام عليه السلام:

علل النفس بالقنوع وإلاّ طلبت منك فوق ما يكفيها

ورد على الذين كانوا يرون في قوته عليه السلام ما يضعف صحته، فيقعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان، فقال عليه السلام:

«كأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب، فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران، ومنازلة الشجعان، ألا إن الشجرة البرية أصلب عوداً، والروائع الخضر أرق جلوداً، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً، وأنا من رسول الله

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٤.

كالصنو من الصنو والذراع من العضد، والله لو تظاهرت الدنيا، على قتالي لما وليت عنها».

إن زهد علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن لنزوة طارئة ولا لحاجة مرحلية، بل هو يستند على قانون ثابت مستقيم كما بيّنا. إذ وضع نصب عينيه مقولة الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وآله وسلم منهجاً له في تعامله مع قوانين الحياة.

إذ يقول عمار بن ياسر:

- سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلي بن أبي طالب: يا علي، إن الله عز وجل قد زيّنك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها: الزهد في الدنيا، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً، ولا تنال الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين ورضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك[1].

إذن، فزهد الإمام علي ما كان إلا بأمر من الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما عليه إلا التنفيذ ليكون موضع ثقة الله ورسوله.

فالإمام في زهده ما كان هدفه أن يرسم منهجاً للناس في انعكاسات سلوكهم على بعضهم، بل كان ينفذ أمراً صدر إليه من صاحب القرار الأول على لسان رسوله وخازن وحيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ونحن نستدل على هذا من كتبه ورسائله إلى عمّاله ونصحه أصحابه الخلّص. من ذلك كلامه مع عاصم بن زياد الحارثي حين

(١) أسد الغابة.

سمع عنه أنه لبس العباءة وتخلى عن الدنيا، فدعاه عليه السلام، فلما رأى ما هو عليه قال:

ـ يا عُدَيّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحلَّ لك الطيبات وهل يكره أن تنالها؟ أنت أهون على الله من ذلك.

قال:

ـ يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشومة مأكلك؟

قال:

ـ ويحك إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيغ بالفقير فقره.

ومنه عهده لمحمد بن أبي بكر الذي جاء فيه:

«إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذ الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابح»[١].

ومنه رسالته لعثمان بن ضيف واليه على البصرة جاء فيها:

«ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب

---

(١) شرح النهج.

هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى؟ أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الزهد، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش»[1].

أما ذكر الموت في منهج الإمام علي‹عليه السلام› ـ الذي ورد في «النهج» فأخذه المشككون حجة بعدم نسبته إليه ـ فهو مستمد من القرآن الكريم، الذي عاش الإمام‹عليه السلام› تفاصيله من بدايات الدعوة الإسلامية حتى وفاة الرسول الكريم‹صلى الله عليه وآله› وانقطاع الوحي؛ فقد جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾[2].

وقوله ـ جل من قائل ـ : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[3]، وقوله عز وجل:

﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[4]. وقوله جل شأنه: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[5] وقوله جلت قدرته: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[6]. وقوله عز من قائل:

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٦.

(٥) سورة ق، الآية: ١٩.

(٦) سورة الرحمن، الآية: ٢٦.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1] .. الخ.

وهذا من الأمور البديهية لأن الإمامعليه السلام منذ نعومة أظفاره تربى في حجر النبوة ورضع من لبان الإيمان وبنى نهجه على وفق ما رأى وسمع وتلقى من تفاصيل الدعوة الإسلامية، بما فيها الوحي والسلوك اليومي للرسول الكريمصلى الله عليه وآله وما جرى في تضاعيف تلك الدعوة من صراعات قبلية ومذهبية وانشقاقية (الردات) وحروب، وغيرها فكونت الأساسات الإرتكازية لبناء الإمام الفكري والعقائدي الشامخ؛ فشخصٌ تلك ارتكازاته لا بد له أن يجعل منها منهجه في الحياة تفكيراً وتطبيقاً، وهكذا إن ما ورد في «نهج البلاغة» إن هو إلا خلاصة ما نشأ وتربى عليه الإمامعليه السلام فهو - إذن - منتسب إليهعليه السلام بقضّهِ وقضيضه من ألفه إلى يائه بما فيه الزهد والموت وذم الدنيا.

ومبدأ ذكر الموت قائم بالأساس - ليس على التشاؤم واليأس والهزيمة من متطلبات الحياة - على أنه يذكر الإنسان بأن «يعيش شجاعاً لا يرهب سلطاناً، ولا يجبن في نزال، ولا يكف عن القتال، كريماً لا يحرص على مال، عادلاً لا يظلم بريئاً من الحرص والطمع، سالماً من الخبث والجشع، صابراً في البأساء والضراء، شاكراً عند الشدة والرخاء، لا تزعزعه الشدائد ولا تثني عزمه الأوابد[2]، عزيزاً لا يخزى ولا يذل، عاملاً بجد لا يكل ولا يمل، لا تريبه ريبة، ولا يجزع لمصيبة، لا تفسده الشهوات،

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) الأوابد: جمع آبدة وهي الداهية.

ولا تقوده اللذات، ولا تضعضعه البليات، لا يؤخر عملاً إلى غد مخافة أن يدركه الأجل فيفوته أجر العمل.

وهذا هو السبب في عز المسلمين في الغابر، وذلهم في الحاضر، فإنهم كانوا يذكرون الموت في جميع أوقاتهم، حتى أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا لا يتركون الوضوء مخافة أن تدركهم ساعة وهم محدثون، فلما أيقنوا أنهم صائرون إلى الموت لا محالة وكانوا ذاكرين له في جميع حالاتهم هانت عليهم نفوسهم فأرخصوها في سبيل الله، وجدوا في العمل فأدركوا غاية الأمل، ومن هانت عليه نفسه عز وأبى الذل، وكان ذلك شعارهم في جهادهم، وغزواتهم وأرجازهم وحروبهم.

هذا العباس بن علي عليه السلام في رجزه عند جهاده من هم أكثر منه عدداً وعدة:

لا أرهب الموت إذا الموت زقا   حتى أداري في المصاليت لقى[1]
إني أنا العباس أغدوا بالسقا   ولا أخاف الشر عند الملتقى

وقد اقتدى بذلك بأخيه الحسين عليه السلام إذ يقول في رجزه:

الموت خيرٌ من ركوب العار   والعارُ أولى من دخول النار

وقد جرى شعراء المسلمين وأدباؤهم،في صدر الإسلام، في هذا المجرى فقال قائلهم:

وإذا لم يكن من الموت بدٌ   فمن العار أن تموت جباناً

---

(١) زقا: بمعنى صاح، والمصاليت جمع مصلاة: وهو الرجل السريع المتشمر.

وما أحسن قول المتنبي حين قال:

إذا غامرت في أمرٍ مرومِ فلا تقنع بما دون النجومِ
فطعم الموتِ في أمرٍ حقيرٍ كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ

وكانوا يعدّون نسيان الموت ضلالاً، وذكره هدًى وكمالاً فقال شاعرهم:

صاحِ شمّر ولا تزل ذاكر الـ موت فنسيانه ضلالٌ مبينُ

بذلك حسنت حالهم، وصلحت أعمالهم، وأدركوا ما أملوا، وعز سلطانهم، وقويت شكيمتهم، وسخّروا البلاد، وخضعت لهم جبابرة العباد، ولما حلت الدنيا بأعينهم، وتناسوا ذكر الموت أسرعوا إلى اللذات وانقادوا إلى الشهوات، وهابوا الموت ففزعوا لكل صيحةٍ وصوت، وتداعت أركانهم، وتزعزع سلطانهم، فهلكوا وضلوا، وخابوا وذلوا، فذكر الموت حياة فيه رضا الرحمن، ونسيانه ممات فيه مرضاة للشيطان[1].

أما ذم الدنيا الذي ورد في «النهج» فاتخذه المشككون قميص عثمان بعدم نسبة ما في «النهج» إلى الإمام علي عليه السلام، فهو مردود أيضاً لأن الإمام عليه السلام لم يرد بذم الدنيا بمعنى أن نعيش في كهوف حجرية ونغل أيدينا إلى أعناقنا ونديرظهورنا عما فيها مما خلقه الله للإنسان رحمة ونعمة، فهو الذي دعانا إلى أن نأكل «من طيبات الدنيا» وننعم بخيراتها من ماءٍ وشجر وطير وحيوان فـ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ ـ هما ـ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2] فمن ترك ما خلق الله

---

(١) إحياء الشريعة.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

في الدنيا لخدمته فهو ظالم نفسه في تركه ما وهبه الله إياه، فيبوء بخسران مبين.

وتأسيساً على ذلك إن الإمام علياًعليه السلام لم يذم ما حلل الله في الدنيا، بل ذم ما حرم، وما حرّم ينسينا ذكر الله ونعمه علينا ويلهينا عما أوجبه علينا من إعداد أنفسنا لحياة الآخرة الدائمة.

فالدنيا في «نهج البلاغة» على ضربين:

دنيا تطلب لذاتها مع الغفلة عما ورائها وهي المذمومة والتي ذكرها الإمام عليعليه السلام بالذم.

ودنيا تطلب لما بعدها وتؤخذ من حلّها، وتنال من الوجه الذي أذن الله به وهي المحمودة ـ وقد أشار الإمامعليه السلام إليها أيضاً ـ لأن «الدنيا خلقت لغيرها ولم تُخلق لنفسها»[1]. وهي «دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن يزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة»[2]

فصفوة القول: إن أمير المؤمنينعليه السلام يرى «أن ما أحل الله في الدنيا أكثر مما حرّم منها، وبمقدور الإنسان أن يتمتع بزينتها المحللة ويتناول من طيبات رزقها مع الحذر من اتباع الهوى، وطول الأمل».

---

(١) شرح النهج.

(٢) المصدر السابق نفسه.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾[1].

وإذا استعصى على الإنسان أن يتوصل إلى ذلك إلا بما حرّم الله، (فطوبى للزاهدين في الدنيا) (أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً وترابها فراشاً، وماءها طيباً)[2]. و(وكلٌّ مقتصر عليه كافٍ)[3]. و«وما خير بعده النار بخير، وما شر بشر بعده الجنة، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية»[4].

ولهذا قال عليه السلام «والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً، وأُجَرُّ في الأغلال مصفداً، أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام»[5].

نخلص من ذلك كله إلى أن «الزهد وذكر الموت وذم الدنيا» في «نهج البلاغة» إن هو إلا منهج اختطه الإمام علي عليه السلام لنفسه لأنه وعى حقيقة الإسلام أكثر من غيره منذراً نفسه لمعطياته التربوية، فهو امتثال لأوامر الله بنفس راضية مرضية ولم يرد من ذلك هجر ما وهبه الله للإنسان والسكن في الكهوف والغابات بدليل أنه عليه السلام تزوج وأولد أولاداً وأكل وشرب مما رزقه الله بالطيب الحلال، ولكنه في ذلك كله ما كان ينسى الله وفضله على

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه. وانظر: مصادر نهج البلاغة وأسانيده لعبد الزهراء الخطيب.

العالمين فتجنب الباطل وتمسك بالحق في سلوكه اليومي فوصلتنا انعكاساته السلوكية من ناحية المعطى الفكري من خلال «النهج» فهو له ومنه وإليه يعود بالنسب الصحيح والقول الصريح.

١٣ ـ وصف الحياة الاجتماعية:

ومما تعكزوا عليه من تشكيك في نسبة «النهج» إلى الإمام علي عليه السلام، قول أحدهم: «إن فيه وصف الحياة الاجتماعية على نحو لم يُعرف إلا في عصور متأخرة..» لأنه رأى أن ما ورد فيه «يشكل طعناً شديداً على الوزراء والحكام والولاة والقضاة والعلماء في السلوك والأخلاق، وفي الذمم والضمائر ووصفا للقضاة بالجهل وعدم المعرفة بأحكام الشريعة»[1].

نفهم من كلام «أحدهم» هذا أن الإمام علياً عليه السلام تناول في «النهج»:

١ ـ الولاة

٢ ـ القضاة

٣ ـ العلماء

بما «لم يُعرف إلا في عصور متأخرة».

في الواقع إنني ما كنت راغباً في خوض هذا الموضوع، ولما ألحَّ عليَّ المنهج قررت أن أمرَّ به مروراً سريعاً لا لأنني أفتقر لأدوات الرد إنما لأن الموضوع، من أساسه عنكبوتي النسج

(١) أنظر أثر التشيع في الأدب العربي.

في مقدماته ونتائجه، ولكن ـ وبعد إطراقة من التفكير والتأمل ـ وجدت أن الواجب يدعوني أن أفصّل فيه بعض التفصيل فأغوص في أعماق بحره لأُرِيَ الذين شدوا عيونهم بخرق سود لئلا يروا الشمس ساطعة فأنكروا عليها سطوعها.

أقول.. لأُرِيَهُم أن في بحر علي بن أبي طالب لمرجاناً كثيراً وياقوتاً مختلفةً ألوانه.

لا شك أن أي متتبع ـ موضوعياً كان أم غير موضوعي ـ يعرف أن التاريخ الإسلامي ـ منذ بدء الدعوة المحمدية حتى نهاية الحكم الراشدي ـ كان يتميز بعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والمالي وغيرها من مرتكزات أي نظام، وذلك أمر طبيعي لأن ما جاء به الرسول محمد بن عبد الله ﷺ بوحي من الله، لم يكن بالأمر الهيِّن ولا هو من طراز التغييرات الشكلية في البنى الفوقية، أو الهيكلية المعروفة في ذلك العهد، أو غيره، مما قبله وبعده، بل كان يهدف إلى تغيير جذري وشامل في البناء الفوقي ـ ليس في الجزيرة العربية فحسب، بل في العالم كله ـ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1].

والعلاقات التحتية مع قمة ذلك الهرم المبني على علائق اجتماعية غاية في التخلف السياسي والاقتصادي والفكري، هو قائم على مرتكزين أساسيين هما:

«السيد والمسود» أو «المالك والمملوك».

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

وأي خروج على ذينك المرتكزين كان يُعد خروجاً على قيم هي موضع اعتزازهم الشديد، بل هي مما لا يمكن السكوت على أي تغيير يحصل في بنائه الهرمي ذاك، لأنها كانت متجذرة في عمق التاريخ العربي، ولكن جاءت الدعوة الإسلامية فخضخضت ذلك البناء فوجدته «نمراً من ورق» فوضعت على مرتكزاته معول الحق فانهار انهياراً عجيباً، وعبثاً كانت محاولاته في لعق جراحاته لأن معول الإسلام كان يحفر في العمق من ذلك الجذر ليقتلعه من أساسه، وهكذا بدأ الإسلام يؤسس مرتكزات جديدة لبناء قيم جديدة عليها بما لم تألفه الجزيرة العربية؛ إذ جعل العبد بإزاء سيده، بل فضّله أحياناً عليه «لا فضل لقرشي على حبشي إلا بالتقوى» و«كلكم لآدم وآدم من تراب» و«كلكم سواسية كأسنان المشط» و«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» و«المسلمون إخوة» و﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[1]. وتلك القيم الجديدة لا شك أنها ليست جديدة عليهم في التلقي ووجوب التنفيذ فحسب، بل هي مما شكلت صفعة قوية لذلك الموروث المتجذر في أعماق النفس العربية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾[2].

ودليلنا أن أول من آمن بالدعوة الإسلامية، في ساعاتها وأيامها الأُول هم أولئك العبيد الذين ارتبط مصيرهم بأراضي أسيادهم كالحيوان والشجر بل الحيوان والشجر أفضل منهم

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

لأنهما كانا يجدان من يخدمهما ولكن العبيد قد «خُلقوا للخدمة. . !» فقط فلا أحد يقيم وزناً لآدميتهم وتركيبهم الإنساني من مشاعر وعواطف وأحاسيس، حتى كانت الشرارة الأولى لثورة الحق فزحفوا نحوها وحملوا مشاعلها في طريق وعر لاحب.

أما السادة ـ ما خلا النفر القليل منهم ـ فقد دخلوا الإسلام مضطرين غير مؤمنين ليحافظوا على مياه وجوههم ومراكزهم الاجتماعية إزاء هذا الزحف النوراني الكبير.

ولكن هل يبقى أولئك السادة مستسلمين لهذا التغيير الجذري الشامل؟

إن التاريخ ليذكر ـ منذ بدء التدوين ـ أن لكل ثورة سقوطاتها على الطريق، وثمة عبارة تقول: «الثورة تأكل أبناءها» وهذا أمر طبيعي جداً، خاصة في ثورة مثل الثورة الإسلامية الانقلابية ذات القيم الشمولية الجذرية، ـ وقد ألمحنا إلى ذلك في فقرة سابقة ـ إذ ما إن استقرت الأوضاع لصالح الإسلام ـ كعقيدة ـ في الجزيرة العربية في الأقل حتى بدأ التململ يشكل ظاهرة، في صفوف «عِلية» القوم فكانت الآيات القرآنية تنزل تباعاً ناصحة حيناً ومرشدة أحياناً ومحذرة مرة ومتوعدة تارةً وناعتة إياهم بـ «المنافقين» و«الماكرين» و«المجرمين» كما نعتتهم بالكذب والزور والبهتان والرياء والخديعة، وما إلى ذلك من صفات أولئك الذين دخلوا دين الله لتطمين مصالحهم وهم بذلك مضطرون حيال هذا الزحف الذي أفقدهم صوابهم.

وبعد صحوتهم تلك صاروا يخططون للالتفاف على «الثورة»

فأبدوا تقرباً عجيباً من قيادتها الأساسية «محمد بن عبد الله ﷺ» ثم من القادة الذين أعقبوا الرسول ﷺ فتغلغلوا في المناصب المختلفة، السياسية منها والإدارية والفقهية والقضائية والعسكرية، وبذلك استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على الهيكل الهرمي لدولة الإسلام ـ خاصة بعد رحيل الرسول الكريم ﷺ إلى اللطيف الخبير ـ ليس بالنمطية العربية قبل الإسلام، بل بنمطية جديدة تتفق والواقع الجديد، بازدواجية غير منظورة إلا لمن يمتلك إدراكاً حسياً عالياً ومجسّات غاية في التحسس مثل الإمام علي عليه السلام. فهم إما أن يكونوا تجاراً أو أرباب مهن فهؤلاء صاروا ـ باسم الإسلام ـ يوسعون قاعدتهم على حساب القيم الجديدة وباسمها.

فماذا ننتظر من الإمام علي عليه السلام، وهو الذي يمتلك «أُذناً واعية» ورضع لبان العلم من رضاب رسول الرحمة وقائد التغيير الجذري الشامل؟

هل يدع أولئك على «كيفهم» يحفرون لهم أسساً جديدة ويضعون فيها مرتكزات جديدة مخالفة ـ في تخطيطها وهندستها ـ ما جاء به الإسلام؟ أم يتصدى لهم لتبصيرهم أولاً ولتحذيرهم ثانياً ولتعريفهم للرعية ثالثاً؟

ذلك ما فعله منذ أول بادرة ظهرت للانحراف عن مبادئ الإسلام فقال عن أولئك «المتاجرين» بالإسلام: «المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه، فإنهم مطرد المنافع، وأسباب المرافق، وجلاّبها من المباعد والمطارح، في برِّك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون

عليها، فإنهم سلم لا تُخاف بائقته، وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك..». وأردف قائلاً: «واعلم ـ مع ذلك ـ أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحّاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرّة للعامة، وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله ﷺ منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً، بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين، من البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكّل به، وعاقبه في غير إسراف»[١].

ليس بتلك الإشارة التبصيرية وحدها أشار الإمام عليه السلام إلى عامله على مصر، بل ترصد تحركاً آخر هو إبقاء الأرض يباباً بلا عمران لتظل أمور أولئك «التجار» «ماشية» في التفافهم على مبادئ القيم الجديدة مما جعل الإمام ينبّه عامله مالك الأشتر على مصر بقوله: «وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء أو قلة انتفاعهم بالعبر.. وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لغيرهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن يشكو ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالّة (أي مطر يبل الأرض)، أو إحالة أرض

---

(١) من رسالة إلى مالك الأشتر/ شرح نهج البلاغة.

اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم، معتمداً فضل قولهم؛ بما ذخرت عندهم من إجماعك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم.. فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد، احتملوه طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل بما حملته».

ولأنه عليه السلام يعلم بنواياهم ومقاصدهم ونوازعهم وركضهم الحثيث وراء منافعهم الذاتية، نراه في اليوم الثاني من بيعته خطب قائلاً:

«أيها الناس إنما أنا رجل منكم، لي ما لكم.. وعليَّ ما عليكم.. وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أُمرت به، إنَّ في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق، أيها الناس.. ألا لا يقولن رجال منكم ـ غداً ـ قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف الروقة.. إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون: «حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا».. ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله وثوابه وأجره على الله.. ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب

حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء، فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله، ولا يتخلفن أحد منكم.. من أهل العطاء».

فهل يرضي ذلك أولئك الذين لم يعتنقوا الإسلام إلا بعد أن رأوا فيه واقعاً لا محيص عنه فرفعوا راية الاستسلام بدل راية الإسلام، ولكنهم ظلوا يتحينون الفرص لاستعادة (مجدهم)، ولما تولى الإمام علي عليه السلام، الأمر وصار يحكم بمبادئ القرآن وسنة محمد صلى الله عليه وآله توجهوا إليه بطريقة التفافية أن يخفف عنهم في سياسته، أجابهم عليه السلام:

«أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟

والله ما أطور به ما سمر سمير وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً..! لو كان المال لي لسويت بينكم، فكيف وإنما المال مال الله؟

ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه أو يضعه في الآخرة».

وهذه السياسة إن وافقت بعض المسلمين المؤمنين حقاً بمبادئ الإسلام فإنها لا توافق أولئك الذين أعمت الدنيا بصائرهم فأنستهم نقاء المبادئ وصفاء العقيدة وبهاء القيم النبيلة التي جاء بها الإسلام، الذي ساوى بين العبد وسيده وجعل التقوى مقياساً يُعرفُ به المسلم المؤمن من المنافق، وأبرز ما في المساواة الصلاة والزكاة والحج، إذ أن الصلاة يستوي فيها العزيز والذليل

ويقفان موقفاً بمكان واحد، ينطقان بنفس الألفاظ ويأتيان نفس الحركات، ونلمس في الزكاة التي تؤخذ من الغني بعض عروض الحياة لتردها على الفقير حتى يشعر كلاهما، وإن باعدت بينهما الأنساب بشعور الإخاء، ونلمسها في الحج، تزدحم بأرضه المقدسة أقدام الرجال والنساء، فلا يميز بينهم فارق واحد، بمناسك الحج حفاة شبه عراة لا يسترهم إلا ذات اللباس يستوي فيه كافة الناس أردية الأكفان، التسوية الحقة هي جماع الإسلام والغاية التي هدفت إليه شعائره وتعاليمه وأتاح لهم جميعاً تكافؤ الفرص في موقفهم أمام الله»[١].

وهذا ما انتهجه الإمام علي عليه السلام في سياسته المالية إذ:

«دخل على بيت مال البصرة في جماعة من المهاجرين والأنصار فنظر إلى ما فيه من العين والورق، فجعل يقول: يا صفراء غري غيري، ويا بيضاء غرّي غيري.. وأدام النظر إلى المال مفكراً، ثم قال:

«أقسموه بين أصحابي ومن معي خمسمائة خمسمائة، ففعلوا فما نقص درهم واحد، وعدد الرجال إثنا عشر ألفاً»[٢].

و«كان يخف دائماً إلى تقسيم الأعطيات على الناس، كلما اجتمع لديه منها شيء، ويكره أن يؤخرها عنهم، كأنما يتأثم من إرجائها، أو اكتنازها إلى حين»[٣].

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب/ عبد الفتاح عبد المقصود.

(٢) المسعودي/ مروج الذهب.

(٣) الإمام علي بن أبي طالب/ عبد الفتاح عبد المقصود.

وكان يخاطب أهل الكوفة بقوله: «يا أهل الكوفة إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي، فأنا خائن».

لقد كان عليه السلام حريصاً على أموال المسلمين شديداً مع ولاته إن هم حادوا عن الطريق القويم، إذ كتب يوماً إلى زياد بن أبيه:

«وإني أقسم بالله قسماً صادقاً، لئن بلغني أنك خنت في المسلمين شيئاً صغيراً وكبيراً، لأشدنَّ عليك شدّة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر، ضئيل الأمر..».

وخاطبه في كتاب آخر: «فدع الإسراف مقتصراً، واذكر في اليوم غداً، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك، أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت من المتكبرين، وتطمع وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف والأرملة أن يوجب لك ثواب المتصدقين؟ وإنما المرء مجزيٌّ بما سلف وقادم على ما قدم.. والسلام».

وكذلك خاطب الأشعث بن قيس عامله في آذربايجان، بقوله:

«وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعًى لمن فوقك، ليس لك أن تفتات (أي تستبد) في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يدك مال من مال الله عز وجل، وأنت من خزّانه حتى تسلّمه إليّ، ولعلي ألا أكون شر ولا تك لك.. والسلام».

أما مصقلة بن هبيرة الوالي على بعض مقاطعات فارس فقد

ألزمه عليه السلام، بإعادة المبلغ الذي أخذه من بيت المال، والذي أنقذ فيه من الأسر خمسمائة رجل معظمهم من بني بكر بن وائل قوم مصقلة، فقال له في كتاب:

«بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وعصيت إمامك، إنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من أعراب قومك، فوالذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لئن كان ذلك حقاً لتجدن لك عليّ هواناً ولتخفّن عندي ميزاناً، فلا تستهن بحق ربك، ولا تصلح دنياك بحق دينك، فتكون من الأخسرين أعمالاً».

ولما طلب منه عليه السلام المغيرة بن شعبة أن يبقي على الولاة الذين ولاهم عثمان أجابه عليه السلام بحزم:

«والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي، ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يُولّى».

ولما أكد المغيرة على إبقاء معاوية لأن له «جرأة، وهو في أهل الشام يسمع منه..» أجابه بالحزم نفسه:

«لا والله.. لا أستعمل معاوية يومين أبداً».

وكذلك عندما طلب إبن عباس منه ذلك عليه السلام أجابه:

«لا والله، لا أعطيه إلا السيف».

ويرفع شعاره الذي اتخذه مرتكزه الأساس في سياسته العامة وهو:

«إن الرعية لا تصلح إلا بصلاح الولاة».

ويطرح معادله الموضوعي في الربط بين الراعي والرعية فيقول عليه السلام:

«.. وأعظم ما افترضه سبحانه من تلك الحقوق، حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كلٍّ، فجعلها نظاماً لالفتهم وعزاً لدينهم».

«فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل، وجرت على إذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان، فطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء، وإذا غلبت الرعية واليها، أو أجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الإدغال في الدين (أي الفساد) وتركت حجاج السنن، فعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يُستوحش لعظيم حق عُطِّل، ولا لعظيم باطل فُعل..

فهناك تذل الأبرار، وتعز الأشرار، وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد فعليكم بالتناصح في ذلك، وحسن التعاون عليه، فليس أحد ـ وإن اشتد على رضا الله حرصه، وطال في العمل اجتهاده ـ ببالغ حقيقة ما الله سبحانه أهله من الطاعة له، ولكن من واجب حقوق الله على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم، وليس امرؤ ـ وإن عظمت في

الحق منزلته، وتقدمت في الدين فضيلته ـ بفوق أن يُعان على ما حمّله الله من حقه، ولا امرؤ ـ وإن صغرته النفوس، واقتحمته العيون ـ بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه»[1].

وجعل عليه السلام من العدل جادته التي لا يحيد عنها وشمسه التي يستحم بدفئها ويستنير بضيائها، وفي هذا الإطار يكتب إلى الأسود ابن قطيبة صاحب جند حلوان بفارس يقول عليه السلام:

«أما بعد فإن الوالي إذا اختلف هواه، منعه ذلك كثيراً من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوض عن العدل. فاجتنب ما تنكر أمثاله، وابتذل نفسك فيما افترض الله عليك راجياً ثوابه، ومتخوفاً عقابه.

واعلم أن الدنيا دار بلية لم يفرغ صاحبها منها قط ساعةً إلا كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة.

وإنه لن يغنيك عن الحق شيء أبداً، ومن الحق عليك حفظ نفسك، والاحتساب على الرعية بجهدك، فإن الذي يصل إليك من ذلك أفضل من الذي يصل بك والسلام»

ويجمل عليه السلام صفات الوالي العادل بقوله:

«إن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هُدِيَ وَهَدى، فأقام سنةً معلومة وأمات بدعة مجهولة، وإن السنن لنيرة، لها أعلام وإن البدع لظاهرة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضلَّ وضُلَّ به، فأمات سنّة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة، وإني

---

(١) نهج البلاغة.

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عابر، فيلقى في نار جهنم، فيدور فيها كما تدور الرحى، ثم يرتبط في قعرها»[١].

ويستخدم الإمام علي عليه السلام المتقابلات في معادلات حسابية بسيطة لتوضيح معنى العدل ومعنى العلاقة بين العامة والخاصة، أي بين الراعي والرعية فيقول عليه السلام من كتاب له إلى مالك الأشتر:

«وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند العطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين وجماع المسلمين، والعدة للأعداء؛ العامة من الأمة، فليكن صفوك لهم، وميلك معهم»[٢].

وكان عليه السلام يوصي عماله بعدم الاحتجاب عن الرعية ويدعوهم إلى مخالطتهم ليسمعوا منهم وليقفوا على همومهم وتطلعاتهم.

قال عليه السلام يوصي قثم بن العباس عامله على مكة:

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

«لا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها، فإنها إن ذيدت عن أبوابك في أول ردها، لم تُحمد فيما بعد على قضائها»[1].

وكتب عليه السلام إلى الأشتر يوصيه:

«.. فلا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية، شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن، ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور وليست على الحق سمات تُعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين؛ إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق، ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه، أو فعل كريم تسديه، أو مبتلى بالمنع، فما أسرع كف الناس عنك مسألتك إذا أيسوا من نبلك! مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤونة فيه عليك، من شكاة مظلمة، أو طلب لإنصاف في معاملة.. واجعل لذوي الحاجات قسماً تُفَرِّغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً، فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتُقعِد عنهم جندك وأعوانك، من حرسك وشُرطك، حتى يكلمك مكلمهم غير متتعتع..

ثم احتمل منهم الخرق والعين (الخرق: العنف. والعين: العجز عن النطق) ونحِّ عنهم الضيق والأنف، يبسط الله عليك

(١) المصدر السابق نفسه.

بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيئاً، وامنع في إجمال وإعذار. ثم أمور من أمورك لا بد من مباشرتها، منها إجابة عمالك، بما يعيا عنه كتابك، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تحرج به صدور أعوانك»[1].

وحذر عليه السلام الأشتر من أولئك الذين قلنا إنهم اعتنقوا الإسلام لا بسبب إيمانهم بمبادئه بل لكونه صار أمراً واقعاً فخافوا على مصالحهم وامتيازاتهم فانخرطوا في صفوفه، ومع ذلك فقد تغلغلوا في المناصب العليا فقال عليه السلام يوصي الأشتر ويحذره منهم:

«إن شر وزرائك من كان للأشرار من قبلك وزيراً ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه، ولا آثماً على إثمه، أولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفاً، وأقل لغيرك إلفاً، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمرِّ الحق، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك، مما كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع، والصق بأهل الورع والصدق، ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من الغرة»[2].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

ثم يعكس المعادلة فيوصيه باختيار من هم بالمروءة ألصق وكذلك بالكرامة والشرف والصدق، إذ أنهم من يؤتمن جانبهم فلا يخونون صاحبهم، فقال عليه السلام:

«ثم الصق بذوي المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، فإنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف (أي المعروف)»[1].

وبعد أن ينتهي عليه السلام من إيصائه باختيار رجاله يوصيه بكبح جماح نفسه وصدها عن الشهوات التي تبعده عن دينه وتخلخل إيمانه، إذ يقول عليه السلام:

«وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك وشحَّ بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها في ما أحبّت أو كرهت، وأشعر، قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم، واللطف بهم... ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم... اجتنب ما تنكر أمثاله... إن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، فيقولون فيك ما كنت تقول فيهم».

ثم يخلص عليه السلام من الخاص إلى العام فيحلل النفس الإنسانية تحليلاً علمياً لن يقول بغيره أحد علماء العصر، إذ يقول عليه السلام: «الناس صنفان: إما أخٌ لك في الدين أو نظير لك في الخلق،

---

(١) المصدر السابق نفسه.

يفرط منهم وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك».

ثم حدد له أسس التعامل مع رعيته بما يضمن سلامة الحكم وتكافؤ الفرص وإشاعة الأمن والاستقرار، ونشر العدالة الإنسانية إذ يقول عليه السلام:

«لا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة»[1].

ثم «لا تنقض سنّة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية ولا تحدثن سنّة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنّها والوزر عليك بما نقضت منها»[2].

ثم «وأكثِر من مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك».

ثم «إياك والمن على رعيتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت،

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه.

عند الله والناس، قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»[1]..

ثم يذكر عليه السلام شروط الوالي (الحاكم) فيأتي بالسبب ونتيجته في صفات عديدة للوالي، فيقول عليه السلام:

«وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيظلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة».

وروي أن شريح بن الحارث القاضي، اشترى على عهده عليه السلام داراً بثمانين ديناراً، فبلغه ذلك فاستدعى شريحاً وقال له:

«بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً، وكتبت لها كتاباً وأشهدت فيه شهوداً.

فقال شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين.

فنظر إليه عليه السلام نظرة المغضب ثم قال:

يا شريح أما أنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ولا يسألك عن بينتك، حتى يخرجك منها شاخصاً، ويسلمك إلى قبرك

---

(١) سورة الصف، الآية: ٣.

خالصاً، فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك، ونقدت الثمن من غير حلالك، فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة! أما أنك لو أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة، فلم ترغب بشراء هذه الدار بدرهم فما فوق».

أما عثمان بن حنيف الأنصاري، عامل الإمام علي عليه السلام في البصرة، فقد دعي إلى وليمة قوم من أهل البصرة، فمضى إليها، فبلغ ذلك الإمام علياً عليه السلام فكتب إليه مستنكراً ذلك قائلاً:

«أما بعد يا بن حنيف، فإن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قومٍ، عائلهم مجفو وغنيهم مدعو فانظر إلى ما تقضمه من هذا المَقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه».

ثم تحدث عليه السلام عن منهجه في الحكم فدعا الولاة أن يعينوه على إنجاح هذا المنهج فقال عليه السلام مخاطباً ابن حنيف:

«ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه (أي ثوبيه الباليين) ومن طعمه بقرصيه (أي رغيفيه)، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورعٍ واجتهاد وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا، ولا حزت من أرضها شبرا، ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دبرة (التي عقر ظهرها فقل أكلها) وهي في عيني

أوهى وأهون من عقصة مقرة... وإنما هي نفسي أروّضها بالتقوى، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق (كناية عن الصراط)، ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة أو أبيت مبطاناً وحولي بطونٌ غرثى وأكباد حرّى أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داءٌ أن تبيت ببطنةٍ وحولك أكبادٌ تحن إلى القدِّ

أأقنع من نفسي أن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة إلى شغلها تقممها (أي أن البهيمة السائبة شغلها أن تلتقط القمامة) تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى أو أهمل عابثاً، أو أجر حبل الضلالة، أو أعتصف طريق المتاهة».

لم يكتف عليه السلام بمحاسبة ولاته عن أي حيدة عن الطريق الذي رسمه لهم الإسلام بل صار يحاسب نفسه أيضاً، وكمثال على ذلك نقرأ قوله عليه السلام وقد أرسل إليه أحد ولاته هدية هي عبارة عن حلوى ملفوفة في وعاء فقال عليه السلام:

«وأعجب من ذلك طارقٌ طرقنا بملفوفةٍ في وعائها، ومعجونة شنئتها (أي كرتها)، كأنما عجنت بريق حية أو قيئها، فقلت: صلة أم زكاة أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل البيت،

فقال: لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية، فقلت: هبلتك الهبول (وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد) عن دين الله أتيتني لتخدعني، أمختبط أنت أم ذو جِنّة أم تهجر (أي تهذي)

والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة. . أسلبها جلب (أي قشرة) شعيرة ما فعلته، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة، ما لعليٍّ ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى، نعوذ بالله من سبات العقل، وقبيح الزلل، وبه نستعين».

وقصة النجاشي شاعر الإمام الذي طالما مدحه وهجا خصومه، والذي تعرض هو الآخر إلى الجلد بعد أن وجده الإمام مفطراً في رمضان وثملاً من السكر ليست بعيدة عن الأذهان.

كما أن الإمامعليه السلام قد حذّر من بعض القضاة الذين استغلوا مهنتهم لمآربهم الشخصية فقالعليه السلام:

«إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان:

رجلٌ وكله الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل مشغوف بكلام بدعة، ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدى من كان قبله مضلٌّ لمن اقتدى به في حياته، وبعد وفاته حمّالُ خطايا غيره، رهن بخطيئته.

ورجلٌ قمش جهلاً، مُوضعٌ (أي أمرع) في جهال الأمة عاد في إغباش الفتنة، عم بما في عقد الهدنة، قد سمّاه أشباه الناس عالماً وليس به، بكر فاستكثر من جمع، ما قل منه خير مما كثر،

حتى إذا ارتوى من ماءٍ آجن واكتنز من غير طائل، جلس بين القوم قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به، فهو من لبس الشهوات في مثل نسج العنكبوت؛ لا يدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب، جاهل خباط جهالات، عاشٍ ركاب عشوات، لم يعض على العلم بضرس قاطع، يذري الروايات إذراء الريح الهشيم، لا مليء ـ والله ـ بإصدار ما ورد عليه، ولا هو أهل لما فُوِّض إليه، لا يحسب العلم في شيء مما أنكره ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهباً لغيره، وإن أظلم عليه أمر اكتتم به، لما يعلم من جهل نفسه، تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعج منه المواريث.. وآخر قد تسمى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهال وأضاليل من ضلال. ونصب للناس أشراكاً من حبائل غرور، وقول زور، وقد حمل الكتاب (يريد القرآن الكريم) على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يقول: أقف عند الشبهات وفيها وقع، ويقول اعتزل البدع وبينها اضطجع».

فأولئك هم الذين: «المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرىء منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرًى ثقات وألباب محكمات».

ووضع أسساً لمواصفات الفقيه، فقال:

«الفقيه، كل الفقيه، من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم

يؤيسهم من روح الله ولم يؤمنهم من مكر الله».

تلك كانت قارئي العزيز إضمامة من أقوال الإمام علي بن أبي طالب في وصف «الحياة الاجتماعية» في زمانه تناول فيها الولاة والقضاة والعلماء، ومن خلالهم رسم منهجاً علمياً للقوانين الإدارية والسياسية والاقتصادية (والاجتماعية بصورة عامة) يصلح لكل زمان ومكان إلى يومنا هذا، فهو منهج تمخض عن توقد ذهن الإمامعليه السلام الثاقب ونظرته الشمولية إلى الحياة العامة.

فإذا كان ذلك لدى البعض لم يعرف إلا في عصور متأخرة (كما ادّعى أحدهم) فما ذنب الإمامعليه السلام وقد سبق عصره والعصور التي أعقبته، ولو أمعن النظر هذا (الأحدهم) في الحياة (الاجتماعية والإدارية والسياسية والاقتصادية) في عهود الخلفاء الراشدين الثلاثة (أبو بكر وعمر وعثمان) لوجد أن الإمام علياًعليه السلام كان له الحضور الفاعل والمؤثر في مفاصل سياسة تلك العهود بل لم يستطع أي منهم تجاوزه في المشورة وحل المعضلات السياسية والإدارية والاقتصادية والقضائية، ولعل شهادة عمر بن الخطاب تغنينا عن كثير من الأدلة (الثبوتية) من أنهعليه السلام كان منقذ عمر من مطبات كثيرة؛ أليس هو القائل:

«لولا علي لهلك عمر»؟

و«لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضر»؟.

و«علي أقضانا»؟.

و«لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن»؟.

ثم أليس هو من استشار الإمام عليه السلام حين أراد الخروج بنفسه إلى غزو الروم فأشار عليه الإمام علي عليه السلام بقوله:

«إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب، لا تكن للمسلمين كانفة (أي: عاصمة) يلجأون إليها، دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرباً واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت رداء للناس ومثابة للمسلمين».

وعندما أراد عمر أن يشخص بنفسه لقتال الفرس استشار الإمام علياً عليه السلام فأشار عليه:

«إن هذا الأمر لم يكن نصره وخذلانه بكثرة ولا بقلّة، وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعدّه وأمدّه، حتى بلغ ما بلغ، وطلع حيث طلع، ونحن على موعود من الله، والله منجز وعده وناصر جنده، ومكان القيم بالأمر مكان النظام (أي السلك) من الخرز، يجمعه ويضمه، فإن انقطع النظام تفرق الخرز وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم، وإن كانوا قليلاً، فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع، فكن قطباً، واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض إنتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم مما بين يديك.

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب فإن قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك، وطمعهم فيك، فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين، فإن الله

سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم، فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة».

تلك هي الشهادة التي لا يحتاجها الإمام ولكننا سقناها إلى أولئك الذين سلكوا في كتاباتهم «درب الصد ما رد» في تشكيكهم بنسبة ما في «نهج البلاغة» إلى الإمام علي، ومنه هذه الفقرة التي نحن بصددها، علّهم يتلمسون طريق العودة من «دربهم» ذاك إلى جادة الصواب والحق. وعند ذاك لن يستكثروا على مثل الإمام علي عليه السلام أن يصف الحياة الاجتماعية بمثل ما وصف لأنهم سيدركون أن عصر الإمام، وعهده في الحكم ـ خاصة ـ كان شديد الاضطراب ـ على قصره ـ وعهد تلك سمته لا بد أن تختلط فيه الأوراق كما «يختلط الحابل بالنابل» فتهتز نفوس وتضطرب أخرى وتُغرى ثالثة بمباهج الحياة الدنيا فيقصر النظر ويضيق الإدراك وتتقاصر البصيرة.. حينذاك لا بد من شخص يتمتع بقدرات ذهنية استثنائية ليعالج تلك التخلخلات والإنثلامات في المجتمع، فكان ذلك الشخص هو الإمام علي عليه السلام وكانت معالجاته في تلك الخطب والأحاديث والوصايا والمراسلات التي ضمها «نهج البلاغة».

فهل ذلك كثير على الإمام علي عليه السلام؟ الذي وصفه الرسول الكريم بأوصاف ما وصف مثله قط، وقد وقفنا على بعضها في كلام لنا فائت، فضلاً عن أقوال الخلفاء الراشدين فيه، بل حتى أقوال خصومه، كمعاوية وعمرو بن العاص وغيرهما.

إن قليلاً من التروي في إلقاء الكلام سيجعل من صاحبه منصفاً ومتصفاً بالنزاهة والأمانة التاريخية.

نرجو أن يكون أولئك المشككون من هؤلاء الرجال ـ الذين وصفنا ـ يوماً ما إن كانوا أحياء وإن ماتوا فنرجو لهم غفراناً من ربٍّ رحيم.

الفهرس

المقدمة ٥

المبحث الأول: المشككون بنهج البلاغة ٩

المبحث الثاني: الرد على المشككين بنهج البلاغة ٢٥

١ ـ جامع النهج ٢٦

٢ ـ الغثاثة ٣٠

٣ ـ عائدية نهج البلاغة ٤٣

أقوال المنصفين في «نهج البلاغة» ٥٥

٤ ـ التعريض بالصحابة ٦١

٥ ـ الوصي والوصاية ٧١

٦ ـ الإطناب والإيجار ٨٣

٧ ـ السجع ٨٧

٨ ـ دقة الوصف ١٠٠

٩ ـ الألفاظ الاصطلاحية ١٠٨
١٠ ـ التقسيمات العددية ١١٠
١١ ـ التنبؤات والتوقعات ١١٥
١٢ ـ الزهد ١٣٣
١٣ ـ وصف الحياة الاجتماعية ١٤٥


بسم الله الرحمن الرحيم